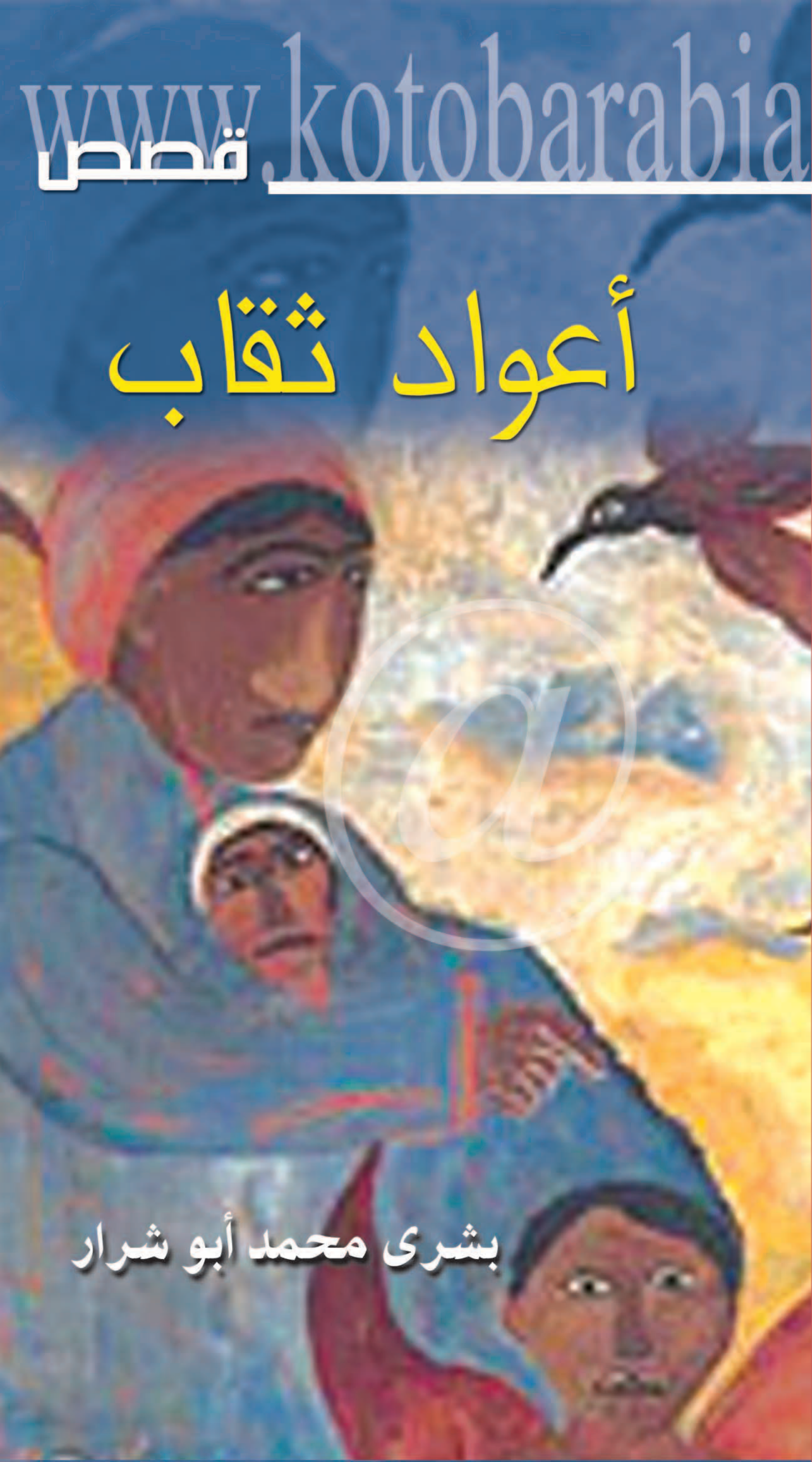
قصص

أعواد ثقاب



بشرى محمد أبو شرار

مطبوعات القصة

تصدر عن ندوة الاثنين بالإسكندرية

إشراف

عبد ا هاشم

أعـواد ثقـــــاب

بشرى محمد أبو شرار

روايـــة

الإهداء

إلى أمي شريفة..

فهي فلسطين

بشرى محمد أبو شرار

أعـــواد ثقـــــــاب

عيون النار ساكنة فى مطارحها.. صـنبور الميـاه ينتظرنى لأدير مقبضه فتخر مياهه.. تمتلئ ركوة القهـوة.. أحملها.. ألامسها.. أعرف مقـادير قهـوتى التـى أشـربها وحيدة.. علبة الثقاب ساكنة.. تلحظنى.. حان وقت ملامستها بأطراف أناملى وسحب جارورها الصغير على أعواد ثقـاب لم تشتعل... تناولت إحداها.. مررت به بضغطة ناعمة على جدار العلبة فاشتعل وتوهج..

العـود الأول

وطنى قطعة جبن مثقوبة

سياج.. أسلاك شائكة.. أبواب مكهربة.. صـفارات إنذار.. كشافات أحالت ليلنا نهاراً.. مكبرات صوت.. حالت بين آذاننا وقلوبنا.. ضمنا الليل بسياجه تنغزنا حواف حكاياتنا فنظل ننظر قمرنا فى سماء ليلنا..

عبرت بالحافلة إليها استنشق هواءها وسط صـفعات حراب مقامة على الأرض.. "قف منطقة عسـكرية مغلقـة" انتقلت إلى سياراتنا التى تلم طرقاتنا.. إلى ناس مـن بلـدتى يجاوروننى على المقاعد الأمامية والخلفية.

يسأل السائق:

- إلى أين يا خاله؟
- إلى منطقة حى الشيخ رضوان ومعى ابنتـى ستنزل فى منطقة عامر.
- وأنت يا عم الحاج
- مخيم البريج
- سيدتى إلى أين؟
- إلى منطقة الرمال شارع فلسطين

انطلق بنا تلمنا رياح وطننا فى نسمات دافئة.. تلفـح وجوهنا تعانق عيوننا.. مدت الخالة الجالسة بجوارى يـدها

إلى بقطعة خبز فاح منها أريج زعتر بلادنا.. لم أتـردد أن أمد يدى وآخذ منها ما اشتقت إلى مذاقه.. فالتقمـت خبـزاً بزعتر وزيتاً فى الطريق إلى دارنا..

من رفح طالعتنى محكمة رفـح العسـكرية صـور تلاحقت أمامى..

"أبى يصل قبل موعده وسط انتظار أهالى المعتقلـين أمام حاجز التفتيش للدخول.. يحتضن أوراقه.. يضمها بقـوة يتشبث بها بوجه صلد يقابل به وجوه الأبناء خلف القواطـع الخشبية فى ساحة محاكمتهم.."

وتذوى الصورة مع ابتعاد السيارة بنا تشق الطريـق تقترب من خان يونس ونخيل شوامخ نرفع لها هاماتنا علـى طريق دير بلح وتعرج بنا تدخل الطريق الجانبى لتشق مخيم البريج..

شوارع المخيم أزقة ظهرت لى كساحة معركة خلت من مقاتليها.. أحجار متناثرة فى عـرض الطريـق نسـمع صرخاتها تحت عجلات السيارة كقنابل موقوتة.

صناديق القمامة منكفئة وعجلاتها تدور فى الفـراغ كلما مر الصغار يلفونها بأصابعهم فتدور.. وتقـف وتعـود تدور بحركات أصابعهم العابثة..

جدران البيوت وحوائطها صفحات لجريدة مقدسـية خط عليها كلمات الثورة.. الرفض.. النهوض.. مـن فحـم أعواد محترقة وجدت الكلمات طريقاً لها.. كوفيـات يلفهـا الرجال على الأعناق فتخفى معالم وجوههم إلا من بصـيص نور يطل من عيونهم..

عربات الجيش تقف منزوية فـى الأركـان وعلـى مداخل الأزقة مسيجة بقواطع حديدية ضيقة الفتحات تحـوط الزجاج الأمامى من رشقات الحجارة تلاقيهم كسـيل يعـوق تقدمهم.. فيسود الصمت.. ريبة.. توجس.

من آخر الزقاق وصلنا بالرجل لباب بيته ترجل من السيارة فلمست قدماه تراب الوطن وكف يده امتدت تصـافح الأبناء.. غابوا جميعاً خلف باب الدار الخشبى الذى مال نحو الأرض يلثمها كلما دفعته يد.. فيصافح بأزيزه.. الصـمود.. الجهاد..

واصلت السيارة طريقها الممتد على طول بيـارات البرتقال.. وقفنا حواجز التفتيش فتسرح أبصارنا بعيداً.. على صوت تناغمات عصافير الدورى والحسـون تتقـافز علـى أغصان الشجر.. شقشقات.. زقزقات خلتها لأسماء الراحلين من أبناء الأرض تنقلها الريح إلينا كلما هبت نسـمات غـزة الحزينة.. كمال ناصر.. آيات الأخرس.. يحيى عياش.

- سناف إلى منطقـة الرمـال بعـد المـرور بمشروع عامر ثم حى الشيخ رضوان.

رددت بصوت سارح فى كيان الأرض التى نتهادى فوقها:

- لا مانع

انحنينا بالسيارة معرجين نحو الغرب طريـق بحـر غزة الإسفلتى على التلال نعلو فوقها ونهبط معها ومن على يميننا تنام بيارات البرتقال الشباك الناعمة الحريرية نصـبت على حواف الرمال الملاصقة لبحرنا على طـول الطريـق لتقابل طيور السمان الآتية من قلب الثلج هناك.. من خلـف بحرنا لينام فى دفئنا فتقابله الشـباك تعـانق وجهـه الـريح

تتراقص معها فتضمه فيها قبل أن يدخل فى اسـيجه شـائكة ينزف منها الدم..

تذكرت طير " الشنار " الذى يسافر إلينا ليسكن قمـم جبالنا نركض إليه فى الأحراش والوديان نبحث عن مطارح أعشاشه لنلم البيض فى أكفنا الصغيرة ونذهب بها إلى التنور تدفسه لنا جدتى فى رماده المشتعل..

نجلس القرفصاء تطل عيوننا فى جذوة الرماد وجدتى تحدثنا فرحة..

- كم أنتن جميلات.. أنتن شنارات حلوات

فتذكر الشنارة الجميلة بعين وقدم ومنقار بلون حبات الكرز.. وريش يضم كل الألوان الجميلـة.. بـلادى أمـان لطيور لائذة..

بدت لنا "عامر" من البعد فالتفت إلـى ابنـة الخالـة الجالسة بجوارى أتفرس ملامح وجهها فخلتها قريبة من وجه أمى.. اعتلينا الروابى الرملية فبدت لنا بيـارات البرتقـال.. ظهرت لى من البعد أرض أمى وبقايا بيت مهدم وسور كلما اقتربنا منه استحال إلى سياج تملؤه الأشواك النافرة من كـل ناحية وبوابة صدئة دق عليها لوحة كبيرة "ممنوع الاقتراب"

منطقة عسكرية مغلقة.. أشحت بوجهى عن ربوة كان عليها بيت لأمى وصرخاتها.. هدير الجرافات.. دموعهـا تقتـرب تقترب.. أكثر وأكثر..

لذت بنظرى نحو البحر فحاورنى.. حاكـانى مـلء رماله وأصدافه.. فكان له وجـد وشـوق مثـل شـوقى.. ووجدى.. اقتربنا من حى الشيخ رضوان لـم يتبـق سـوى الخالة وأنا.. تقابلنا البرية وأشجار الصبار.. وأرض فج منها شقائق النعمان.

البرية تستقبل الشهداء ترسم ابتساماتهم وتقوى وتشد من سواعد الرجال الآتين بهم إلى الأرض يفجـون طلائـع لوجوه بهية..

يقابل البرية مسجد فلسطين مع نزول شـارع بيتنـا الباقى هناك.. مع أفول شمس النهار كنت بعتبة دارنا..

صمت.. سكون.. أنزلت حقيبتـى أرقـب الشـارع الخالى.. بعد غيبة سنوات طويلة.. أعود إلى بيتنـا مرتـع طفولتى.

هى البوابة الحديدية عيدان العنب وأوراقها تستنيم علـى حواف البوابة وأوراق أشجار الليمون اشرأبت من فـوق سـور حديقتنا تزهو بأحمالها..

غادرتنى السيارة تركتنى أقف بالباب أنا وحقيبتى التـى خلتها غريبة عنى وهى القادمة معى من البلاد البعيدة.. شـدت خطواتى عتبة دارنا الواطئة تأملـت فتحـات البـاب الحديديـة ورسومات علمت فى أغوار ذاكرتى..

بوابتنا موصدة.. لففت راحة يدى احتضـن المقـبض البارد فسرى دفء بين أناملى وبينه.. ضغطت بـالمقبض إلـى أسفل ففتحت فى كف يدى.. ظهر الممر الطويل أمـامى وفـى نهايته درجات كنا نجلس عليها فى ليال قمريـة نحـاكى فيهـا القمر.. أربع درجات.. شباك ملحق الحديقة تحول بينـى وبينـه قطوف العنب المتدلية.. أغصان متعربشة، دفعت حقيبتى داخـل حدود البوابة تحررت منها وبقيت منزوية أنتظر لحظة اقترابـى من الوطن الذى ضمنى سنوات طفولتى اسمع وقع خطواتى عبر ممر الحديقة فردت ذراعى أتحسس ورقات أشجارنا وألف راحة يدى على أعمدة أقامها أبى لتحمل عريش العنب.

صمت.. سكون.. اقتربت من الباب المطل على بهو الدار شخصت فى بلاط بيتنا فى خطواتنا المنحوتة على سطحه الأملس لا أحد.. لا أحد.

مددت يدى مرة أخرى لفتح باب البهو فطاوعنى لفتنى حوائط البيت إلى الداخل فى عتمة خفيفة مطعمة بالظلال.. تنقلت بخطوات بطيئة لباقى غرف البيت وأسرة خاوية وسائد حزينة لغياب أحباب من أهل الدار.. طالعتنى غرفة أمى مشرع بابها.. وقفت تفترش سريرها فى نصف نومة وكتاب مال على وسادتها تقلبت صفحاته فكشف وجه الغلاف "العجوز والبحر"

يا إلهى كم تحبين بحرنا يا أمى وربوة حملت لك بيتاً مطلا عليه كل يوم تكسرت عليها أحلامك.. كريمة أختى يوم ولدتها تناثرت على ساقيها أشكال من محار وأصداف وكباكب فزعت حين شاهدتيها وحملتيها تعرين جسدها تفتشين فيه وتعدين عدد أنامل كفيها وقدميها.. وأصبحنا ننظر إليها دوماً كعروس بحر عشقتيه استسلمت يا أمى للحظات تنشدين فيها راحة لا أعلم إن أتت إليك أم..

اقتربت من سريرها مددت يدى ألتمس مطرحاً يلمنى وإياها نقرت على خشبه خوفاً من دهشة تصيبها..

استفاقت تفتح عينيها تطالع وجهى مددت يدى لتعانق كف يدها.. نطقت باسمى

- أنا أحلم.. هذا أنت؟!!

- نعم أنا لقد عدت يا أمى

وألقيت بجسدى إليها

- لم تخبرينا بأنك قادمة

ولفت جسدها وأقامت طولها تشد قميص نومها تعدل من هندامها بحمرة طافت بخدودها فتوردتا.. مسحت علـى شعر رأسها فاستنامت خصلاته ليدها بعد جذوة قلق تقمعهـا فى دموع ليلها تطلقها تذرفها على الذاهبين.. الراحلين إلـى البلاد البعيدة.. مضت أمامى تلف غرف الدار علـى غيـر هدى وكأنها تستنهض كل الأحزان على نور أضـاء كيانهـا وأنا اقتفى خطواتها بخطى الماضى البعيد.. القريب.

- سأجهز لك الطعام

- لا تشغلى بالك بطعامى

امتدت يدها على علبة الكبريت وعين النار توهجـت لى ولها تمتد إلى أوانى وأطباق ملاعق كل الأشياء تحركت من الماضى وأفاقت من رقادها فى مطبخ أمى الـذى بـات على السكون والصمت.

أدخلى خذى حماماً دافئاً تزيحى عنك تعب الطريـق فتحـت الخزانة أخرجت المناشف تبدلها بأبهى ما عنـدها.. دخلـت حمامنا الواسع أتأمل مقابض الصـنابير لا زالـت قديمـة.. قديمة.. بحوض حمام كبير وماء كان يملؤه ونحن غارقـات فيه إلا من رؤوسنا المطلة بين رغوات الصـابون وجلـوس أمى على مقعدها الخشبى تشدنا واحدة تلو الأخرى وتفـرك جلد رأسنا بقوة وتصب الماء تغسل الصابون قبـل أن تعلـو صرخاتنا ويلسع عيوننا.. نقف مبللين فتنشف إحدانا الأخرى ونخرج تباعاً واللوح الخشبى لا زال منزويا تحت المدخنـة النحاسية القديمة يوم كانت تسخن الماء بالحطـب.. واللـوح الخشبى بات معتماً يحمل أثقال زماننا، جلست عليه مراراً بيد أمى تغسل جسدى العارى أمامها تفركه بالليفـة والصـابون وتحكى لى حكاية حبها لى..

- أتعلمين كم أحبك عن باقى أخواتك.

كان صوتها يصلنى دون أن تراها عيونى التى أغمضها بقوة خوفاً من لسعات الصابون.. فتدغدغنى كلماتهـا الحانيـة.. وتأتى بالإناء البلاستيكى المملوء بالماء الدافئ تسكبه فوق رأسى فينساب على وجهى على باقى جسدى الذى لمته أمى بلمسـاتها فأرفع أهداب عينى لتقابل عينيها تطبع على جبهتى قبلـة حـب خفية لا تريد أن تطلع باقى أخواتى عليها.. مددت يدى إلى اللوح الخشبى رفعته تحسسته لممته إلى صدرى ألوذ به بالزمن الجميل يوم اعترفت لى أمى بحبها الدفين لى..

خرجت من الحمام أحمل الذكريات الحاضرة معى.. تلفت حولى

- ألم يعد أبى؟!!
- هو علـى وصـول الآن الزمـى الصـمت وفاجئيه بقدومك حين يدخل الدار تظهرين له فجأة..

خطوات أبى أسمعها عبر ممر الحديقـة.. لـم يعـد جنزير الكلاب يخبط بصاج البرميل.. اسـمع صـك البـاب الحديدى وصوت المزلاج ووقع خطواته السريعة نحو بـاب البهو.. لم أقو على الانتظار لحين مفاجأته ظهرت له..

وقف شاخصاً.. رنـوت إليـه فعـالجنى بابتسـامة وعاجلته بيدى التى تلقفت راحة يده فشدها منى ليحتضنى.

- نورت بيتك حمد ا على سـلامتك.. أنـا رأيت حقيبة سفر بالباب فحدثنى قلبى أن أحداً منكم قد عاد.. أهلاً.. وألف أهلاً

قادتنا خطواتنا إلى مقاعد تلف بهونا نجلس والعيـون تطالع العيون على شوق وحنين.. لأنفاس أبى.. أنفاس أمى.. إلى الصمت الموحش المرسوم فى وجوه غريبة تطالعنا على الحوائط والجدران..

أرائك خلت من أخوة وأخوات.. أجسـادنا المتعبـة المترامية على الأرائك من نهار طويل للعبنا وعـدونا فـوق الرمال بين الأشجار فتلمنا هذه المقاعد فيقابل عيوننا النـوم يأخذنا حيث أحلام الطيور السابحة فى فضاء طفولتنا.. وأبى الداخل إلينا يحمل إناء الماء الدافئ يغسل أقـدامنا المتربـة ينشفها ثم ينقلنا حيث فرشاتنا يدثرنا ليحمينا من برد الليل فى ليالى غزة..

المدفأة تستعر شوقاً كقلوبنـا.. شـوقاً للحاضـرين والغائبين..

اقتربت منى أمى قائلة

- لن أخبر أحداً بقدومك لتشبع نفسـى منـك يومين وبعد ذلك لك أن تذهبى أينما شئت

- موافقة يا أمى افعلى ما يطيب لك

نمت فى السكون.. بندول السـاعة يجـرح صـمتنا ورنين الساعات على مدار الساعة ثم يتبعه بعـد منتصـف الليل.. رنين.. رنين.. رنين

نهضت مسرعة نحو جهاز الهاتف

- من

- أنا

- ابنك اليوم كسرت ساقه

- ولكن.. كيف أنا وصلت لتوى

- أنا أخبرتك وتدبرى أمرك

قفل الخط

دخلت على أمى.. كانت جالسة فى سريرها بعينـين تلفان تدوران فى محجرين ضاقا عليهما

- ما الخبر؟!!

- ابنى كسرت ساقه

- ماذا يعنى هذا؟
- أن أسافر غدا
- كيف.. كيف يبلغك بخبر كهذا فى منتصـف الليل أين قلبه..

لم أرد عليها بكلمات كنت أود لو أقولهـا.. لتقطـع صمتى.. تقطع فؤادى.. تمزق كيانى.. تسحبت تحت غطائى استلقيت على ظهرى أنظر إلى سقف الغرفة شاخصة ساكنة أشعر برعشة شلل تتسلل إلى فى أنحاء جسدى..

فى ليلة عانق ليلنا نهارنا اختلطت فيها خيوط الفجـر بضوء القمر فكان فجراً فضياً لامعاً شفافاً كالبلور كان فجراً مهيباً استويت نصف جالسة فى فراش تقابلنى نظرات أمـى الدامية.. وصدرها الآخذ فى العلو والهبوط.. كشفت غطائى عن جسدى ورنوت إليها.

- أحك لى ما بك
- ارتفع الضغط عندى هذه الليلة ماذا أقول فى زوجك.. سأدعه وحكمه.

وباتت تفرك فى فراشها تتقلـب تـدارى دموعهـا السابحة إلى فمها تتجرع ملوحتها اقتربـت منهـا أمسـكت

راحتى يدها أضمها وغصت فى حضنها فى أوجاعها لنذوب معاً فى لحظات وداع كنت فيها هى وهى أنا فـى لحظـات اللقاء..

اندفعت تمسح دموعها تجاه المطبخ تجهز لى طعـام تحمل السمك لتجهزه.

- كيف لى أن آكل السمك الآن؟!
- ستأكلينه فهذا ما جهزته لك غداء الغد
- أمى كل ما تقدمه لى يـداك أحبـه.. أحبـه فمذاق طعامك لا زال فى فمى من سنوات العمر الماضية.

تقف قائلة:

- رضايا عليك يا حبيبتى.. ربنا يسـعد قلبـك ويهدئ بالك لا تتأخرى فى الغياب.. فى البعاد..

أكتم صرخاتى التى أود أن أطلقها.. أقمـع دموعـاً أودها أنهاراً تجرفنى إلى قلب الوطن تلقى بى فى وادى غزة وانساب معها فى بحرنا.. رمالنا.. أصدافنا.

نهضت استعد للرحيل وأبى فى غرفتـه العلويـة لا يدرى عن رحيلى هذا.. أخذت سياج الـدرج أصـعد إليـه

أتحسس مطارح أكفنا عليه وتزلجنا للوصول السريع إلى أول درجاته..

دفعت الباب ببطء كان جالساً فى سريره وغطاء من صوف الخراف يلف فراشه.. المذياع يعلن عن تعليق علـى نشرة أخبار الصباح.. بوجه هادئ تطوف به سماحة خلـى من نظارته الطبية فظهرت لى عيون أبى كاشفتها وكاشفتنى دون الحاجز الزجاجى..

حنو يشع من نور عينيه فيسرى الدفء فـى كيـانى نظرتى فاستعدل جلوسه..

- أهلاً بك.. أهلاً بهـذه الإطلالـة المشـرقة والصباح البهيج..

اقتربت من سريره تطالعنى النوافذ المشرعة فاقتربت منها أمرر راحة يدى على حديدها وتسـقط النظـرة علـى عريش العنب المتعربشة على شباك أبى ورفرفة أوراقها مع نسمات هواء نديه.. شبت دوالى العنب إليه للدور العلـوى، شبت تحوطه تلفه تدفئه فى ربيع تزهر الوريقات وتتبـرعم وشتاء على شوق لربيع قادم..

- أبى أنا مسافرة اليوم

- اليوم لماذا؟!!

- اتصل بى الليلة واخبرنى بكسر ساق ابنى

لم يجيبنى لفنى وإياه الصمت.. فأزاح غطاءه وانتعل حذاءه لف جسده بالمعطف الصوفى.. زفر.. تنهد.. هبطنـا سلالم بيتنا يسبقنى فى صمت مكتوم إلى أن طالعتنا أمى.

- الحافلة بالباب أتت بعد أن تحدثت إلى شركة الباصات

حاول أبى أن يحمل حقيبتى فشددتها من يده تلاحمت أكفنا ثم عناقنا.. لففته بين ذراعى وألقيت برأسى على صدره أتوسل الدموع.. الحنين.. الشوق أن تستبقينى لأشتم أنفـاس أبى تنبهت للوقت انحنيت لأقبل كف يده فارتعشـت شـفتاه لأول مرة وتمتم:

- إلى اللقاء

وأمى تفصد العرق من جبينهـا وازدادت وجنتاهـا حمرة..

انفلت من اللحظة وغبت فى مقاعد الحافلـة مضـت أنظرهما يقفان بالبوابة الحديدية على عتبة دارنا ينظران إلى الفراغ الآتى من البعيد..

فتحت زجاج نافذتى أعب ملء رئتى هـواء بـلادى شهيق.. زفير.. أرض.. وطن رحيل.. وعودة ثم رحيـل.. خان يونس.. البريج.. دير البلح.. منطقة مغلقـة.. ممنـوع الدخول.. تساقط المطر غبش على الزجـاج بـدت بيـوت متناثرة على الكثبان الرملية يغطى سـقفها قرميـد أحمـر.. أسلاك.. رادارات ترصد الحركة والطريق مسـيجة بسـياج كهربائى إلكترونى.. أجهزة تنصت.. مسـتعمرة نتسـاريم.. مستعمرة غوش قطيف.. سياج.. مخيمات.. الشاطئ البريج.. مخيم كندا البرازيل.

تحسست كوفيتى التى لفتنى بها أمى خوفاً من بـرد الصباح كوفيتى مسيجة وأرضى مسيجة وروحى مسيجة..

وبين ضفة غربية.. شرقية سـياج جفـاف نهـر.. تصريح.. هوية بلا جنسية.. ممنوع الدخول.. أبـق هنـاك خارجاً على الحدود.. فالوطن صار كقطعة جـبن تنـاثرت عليها الثقوب..

العود الثاني

متى سيرحل

جلس بجوارى على حافة سريرى تشـابكت أنامـل راحتيه غارساً عينيه فيهما مهموماً..

التفت إليه واقتربت منه أكثر ألمـه بسـاعدى نحـو صدرى.. ومددت يدى لأرفع وجهه بنظرى.. ما الذى ألـم بك..

- أمى.. متى يرحل أبى.. لقد تعبت منه كثيراً

- يرحل!.. ماذا تقصد بهذه الكلمة

- يرحل يا أمى.. يرحل عن دنياى التى يجعلها تضيق عليه فأكاد أنا الذى اختنق بها.

رفعت رأسى نحوه..

- ما الذى اسمع.. كيف تتمنى الرحيل لأبيك..!!

هوى كتفى فسقطت يدى عنه.. وتسـمرت نظرتـى على أوراق مبعثرة فوق مكتبى تقترب منى تلفنـى تحملنـى لأطير بها حيث هناك.. موطناً كـان لـى.. بيـت وأهـل وصحبه..

أنزل على عتبات سلم بيتنا أتقافز مـن عليهـا ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة.. ومرات آخذة حافة الجـدار

حيث ألقى بجسدى الصغير على ملمسه الناعم فأجـد نفسـى أسفل الدرج.. وأحياناً تلمحنى أمى.. تصيح بى..

ألن تكفى عن هذا.. لِمَ لم يخلقك الله صبياً ويكمـل الجميل.. ما هذه أفعال البنات أبداً.. وفى كل صـباح آخـذ درجات السلم وتأخذنى حيث الطابق السفلى.. يقـابلنى أبـى واقفاً أمام المرآة يحلق ذقنـه.. أو يـتم وضـوءه ومـا أن يلمحنى..

- أين صباح الخير

أقف خجلة..

- لقد قلتها يا أبى ألم تسمعنى

فألمح ابتسامته الودودة من المرآة التى يقف أمامها..

ومن كلمات الصباح إلى مدرستى وصورته التـى لا تفارقنى أجلس على مقعد الدراسة أتخيله واقفاً فـى سـاحة المحكمة مترافعاً أو يمشى مسرعاً يمد الخطى ووراءه عـدد من الرجال ليلحق موعد زيارة المعتقلين فـى سـجن غـزة متشبثاً بما يحمله من عرائض وطعون وتظلمـات ومقابلـة للنائب العام العسكرى وفلان وعلان..

هل يمرض أبى.. هل يفاجئنى يوماً برحيله.. فـأبو طلال جارنا مات العام الماضى.. وأبو العبد ما لبث أن لحق به.. واستجمع إرادتى من أعماق داخلى لأتنبه لحدث كهذا.. فما كانت حيلتى إلا أن أراقب الطريق أثناء عودتى إلى البيت من المدرسة.. فلو كان شارعنا هادئاً والحياة عاديـة فـأبى سيكون بخير.. ولا زال فى ساحات المحاكم أمـا لـو كـان هناك..

وتجتاحنى الهواجس كـل يـوم وأنـا علـى مقعـد دراستى.. استعجل جرس الانصراف للوصول إلى ناصـية شارعنا.. وما أن أراه هادئاً رتيباً أطمئن وأهدأ على أبى إنه فى بيتنا.. أو خارجه ولكنه سيعود إلينا.. بـدخولى ردهـة حديقتنا ابحث عنه فى جنباتها.. كم يعشق تقليم دوالى العنب وهندمة أغصان البرتقال.. وتقليب الأرض بيده أو بمسـاعد معه..

فى ربيع بلادنا تزهر أشجار البرتقال فيفوح عطرها شذى ندياً يسافر فى كل فلسطين من غزه إلى الخليـل إلـى يافا.. نسمات عطرية.. وبنات يحلمن بعقـود مـن زهـور البرتقال نصنعها بخيوط من علبة تخص أمـى لنعقـد بهـا

القلادات الجميلة.. ويفاجئنا أبى بصوته الحانى.. ما الخبر يا بنات هذه هى زهور البرتقال.. كل زهرة هى برتقالة..كفـوا عن هذا..

يهل علينا محباً فى كلماتـه الملامـه فننظـر إلـى الزهيرات فتزداد جمالاً وتسقط فى طيات ملابسـنا نلملمهـا ونفتش عن البرتقالة التى يقول عنها ننزع الوريقات المخملية واحدة تلو الأخرى لتظهر برعمة البرتقال ويظهـر صـدق أبى.. فتحزن عيوننا.. ونعد ونتواعد بـألا نقطـف زهـور البرتقال إلى أن تمتد أيادينا إلى الذهب المتدلى ينير حـديقتنا وبياراتنا.. عندما ينكسر شعاع الشمس على حباته وتتـوهج حديقتنا وهجاً ندياً..

وبنباح كلبنا نعرف أن بالباب ضيوفاً ويخـرج أبـى يستقبلهم يصافح ويصافح بكلمـات ترحابـه الدافئـة يتقـدم الوافدين إلينا عبر ممر الحديقة ليظل هو آخـرهم.. تضـاء الأنوار.. يفتح باب الضيوف.. وأنا عينى على أبى دومـاً.. اليوم سيكون حادث وحديث ولكن كيف لى أن أجلـس مـع الجالسين واستمع لحديث أبى الذى أعشق كلماته..

كنت أعرف مكانى جيداً.. أسفل النافذة أجد لى مكاناً أجلس فيه القرفصاء.. يصلنى صوته.. اسمع كلماتـه وهـو يحكى عن فلسطين عن عز الدين القسام.. ومعركة القسطل.. والجهاد المقدس.. ورفيق دربه محمود رياض فكانـت هـذه الأسماء رموزاً تعبت فى فكها ولكنى حفظتهـا عـن ظهـر قلب.. ويحكى عن الملك عبد ا   الأول الذى فرط وتخـاذل وضياع الضفة الغربية دون طلقة واحدة.. كانـت المعركـة تسليم مواقع ونقاط وحدود.. فى صمت حزين أوغـر فـى القلوب.. كانت النافذة تطل على قلبى من عيون أبى ولسانه.. وكلما سمعت همهمة الرجال بالقيام من المجلس.. أهم أنا من مكانى لأذهب حيث أمى.. وسعادتى وأنا أحمل كلمات أبـى وأنام بها.. كان التاريخ كله يأتينى عبـر النافـذة بكلمـات عشقتها ونقشتها ما بين الترائب..

وظل أبى هو الحكاية وكل الحكايات.. صوته ينادينا أن تصلين يا بنات.. هيا للوضوء.. فنقف وراءه نستعد وهو أمامنا.. وكلما قرأت فى قصائد أنثرها فى أنحاء بيتنا.. كـان ينثر معى فى نطق الحروف ومخارجها.. يصلح لى.. وأعيد وراءه ويمضى هو يتركنى لمحاولة ومحاولات أخرى.. فى

ليلة بات يجهز حاجياته ويلمها فى حقيبة سفر.. مسافر هـو لأداء فريضة الحج وها هو الوقت يداهمنا.. وأنا أحوم حوله كالفراشة ما بين الغرف والردهات عسى لقلبى أن يهدأ مـن غليانه.. أما هو.. فكان هادئ القسـمات خفـيض الصـوت يتحرك فى دفء يحوطنا به قلبه..

أقف على عتبة الباب.. أشخص فيه وفى حاجياتـه.. كيف سيكون شكل دارنا بغياب أبى.. المودعون.. المهنئـون وافدون إلينا.. وعينى على الحقيبة المسافرة معه.. أطل علينا صباحنا مودعاً لأبى.. وقفت الحافلة بالباب وأنا وقفـت فـى زحام أخوتى وأخواتى تمتد الأيادى مسـلمة وهـو ينظرنـا يحتوينا بضمنا وجاء دورى مد لى يده أخذتها قبلتها وأرفعها للجبين فكان يسحبها بحنو دافق يغرقنى.. مضى وغاب عنـا فى الحافلة.. وأنا التففت حول البيت فى الحديقة الخلفية تحت شجرة التين اختليت مع دموعى حتى لا ترانى أمى وأخوتى فهذه أول مرة يفارقنا أبى.. وأنا التى تعلقت به فمتى يعـود إلينا.. وهل يعود؟ أم...

رجعتنى نقرات أنامله الرقيقة على سـطح مكتبـى يتأفف بضيق وضجر.. لم تنفك أناملـه المتشـابكة وحيـرة وضيق يحيطان به..

- ألا يرحل يا أمى.. أنا لا أطيق الحياة معه.

كلماته أصابتنى..

العود الثالث

أمى تريد صبياً

وها هى أمى مفترشة للأرض فى غرفـة الخـزين غارقة وسط الأجولة التى أتى بها أبى من حصاد أرضـنا.. نظرتنى وتاهت نظراتها مرة أخرى بما تعده وترتبـه فـى الصناديق الخشبية التى تحتوى قطع السكر المتراصة تفرزها وتجنبها فى زاوية عرفناها.. جوال الطحين الأبيض يجـاور جوال القمح الخالص.. وحبات الفريك متناثرة على أطـراف الجوال وفى الجانب الآخر فرشت أجولة الخـيش الفارغـة وعليها البطيخ والباذنجان صفائح زيت الزيتـون والزيتـون الغارق فى الزيت.. وقطع الجبن الأبيض من حليب المـاعز متناثر فى مائه حبة البركة السوداء.. وما أن تفرغ أمى فـى تنظيم وتجهيز حتى تحزم أمرها للنهوض من مكانها نجتمـع حولها نشدها من كلتا يديها تحفـز جسـدها المنهـك علـى النهوض بأحشائها التى تضم روحاً تنبض حياة..

تستند على أكتافنا تجر خطواتهـا ثقيلـة تصـاحبها آهاتها التى اعتدنا سماعها بإقتراب موعد ولادتهـا.. تصـل فراشها تستلقى ثم تقعد بقامتها.. نلتف حولهـا تطلـب منـا إحضار أكوام الملابس المغسولة لترتبها ونحن ننقلها بأيـدينا إلى الخزانات وبين الحين والحين تحدثنا محذرة منبهة إلـى

القدر الذى وضعته على الموقد نرقبه لحين موعد النضوج.. فلن تستطيع الوصول إلى المطبخ مرة أخرى بعد عناء يـوم طويل فهذه هى آخر المهمات الموكلة إلينا.. نتركهـا حينـا لنعود إليها حيناً آخر ولا زال القدر على النار.. قطع صوتها الوقت

- لم تطفئوا عين النار إلى الآن؟!!

أسرعنا إلى المطبخ يحوطنا الارتباك لنرفع القدر من على الموقد.. كان القدر مضغوطاً بالبخار وفى لحظة خوفنا سهونا عن تفريغ هوائه المضغوط فتحنا غطاءه فتناثرت قطع اللحم من كل ناحية اخترقت النوافذ لتستقر فى أرض الحديقة والبهريز تناثر بقوة دفع هائلة تصطدم بأجسـادنا الصـغيرة فتلهبها ونكتم صرخاتنا كى لا تسمعنا فى غرفتهـا وتـدرك حجم خطأنا..

أخذ صوتها يعلو يلاحقنا بالنداء ونحن انطلقنا عبـر ممرات الحديقة نخفى آلام حروق أصابتنا.. ولازال صـوتها ينادينا.. إلى أن انفجرنا ببكائنا فنهضت تعدو نحونا..تلمنـا.. تسعفنا.. تهدهد خوفنا..

ومضت هذه الواقعة بنا بترقب موعـد ولادة أمـى وقلق محتدم بداخلها على أن تأتى بالصبى فالصبايا يمـلأن الدار ولكن هل يأتى إلينا هذه المرة صبياً؟..

جلسات أمى الدائمة بيننا.. تحكـى وتـروى عـن ولاداتها فنتحفز لحديثها نتشوق إليه من خلال شـفتيها التـى تحكى لنا أسرار الوجود فى ولاداتنـا.. نتسـابق نسـألها.. وتجيب فتلقى إلينا بأسمال حريرية تدفء قلوبنا..

- أمى أحكى لى يوم حملتنى هل تعبت؟

- أنا لا أنس فترة الوحم فيك كانت غريبة كنت أتنشق على دخان الحطب الذى يملأ الأرض من حولنا كلمـا تجمع البدو حول منطقتنا فأخرج من الدار ألف حول بيـوتهم التى نصبوها بيوت الشعر وأظل أملأ رئتى برائحـة دخـان عيدان الحطب المحترقة تحت مواقدهم..

- أمى نعم.. نعم.. أتعلمين أن هذه الرائحة هى التى أحب أن أتنفسها كلما هبت نسمات ربيعية تحمل معهـا دخان المواقد البعيدة..

ونطقت سلافة الساكنة بجوار أمى:

- وأنا بم توحمت عندما حملتينى؟

- كنت أمشى فى الحديقة والتقط حبات الحصى البيضاء أقرقشها بين أسنانى..

همهمنا جميعا بصوت واحد

- كيف .. معقول؟!!

ترد بابتسامة هادئة:

- صحيح يا بنات هذا ما حدث

ونظرتنى قائلة:

- وأنت لا أنسى يوم ولادتك

فلمعت عيناى لشغف الحكاية حكاية مولدى..

- أسرع أبوك يحضر لى القابلة، وجدتكم أتت ومعها الداية " ظريفة ".. وآلام المخاض تنتابنى بين الحـين والحين إلى أن حضر أبوكم ومعه القابلة.. كانت امرأة مـن النساء الأتراك القدامى تتحرك بوهن وبطء بيديها المرتعشتين ما أن دخلت حجرتى حتى اعترضت طريقها ظريفة قائلة:

- لم أتيت؟

أجابتها بصوت خفيض

- أنا التى سأقوم بتوليدها

ردت عليها الأخرى:

- بل أنا

وقامت الدنيا ولم تقعد وأنا بدأت أصرخ مـن شـدة الآلام ولم تلتفت إلى أى منهما إلى أن أسكتهما صوتك الـذى جعلهما ينتبهن إلى ولادة تمت لمولودة بنت هو أنت..

وبسمة تلح هى الأخرى لتعرف عن يـوم ولادتهـا فأكملت أمى حديثها إلينا:

- القابلة أم سرور كانت سوداء اللون يوم استقبلتك بكفيها رفعتك نحوى مبتسمة مهللة

- بنت سمراء.. خرطت سمرة كفى عليها ما العمل

ضحكت أمى وضحكنا.. وعيوننا معلقة على بطنهـا وكلما تحرك الجنين تقول أمى:

- هات يد إحداكن أنه يتحرك..

تمتد أيدينا إليها لنأخذ دورنا نتحسس حركات الروح السابحة فى جسدها فتطرب قلوبنا وتسعد للحظات لقاء آتيـة تسعدنا أمنا بالمولود القادم إلينا.. ولكنها تريده صبياً..

فى صباح يوم صيفى ومع اقتراب الأيام الأخيرة من الأشهر التسعة صحونا على صوت أمى يعلو حيناً.. يهـبط

حيناً.. اندفعنا نحوها.. تتقلب فى سريرها.. تنادى أبى فيأتى إليها..

- الألم يشتد بى أريد أن أقول لكم عن كل أشـيائى وحاجياتى وأدلكم على ما خفى من أماكنها، أخاف أن يحدث لى مكروه..

فقاطعناها جميعاً:

- لا تقولى هذا يا أمى

ترد علينا بنبرات متقطعة:

- الـولادة تخلـيص روح مـن روح وهـذه الساعات أكون فيها بين يدى ا فأدعوا لى بالسلامة..

طرقات متوالية بالباب ذهبنا نستطلع الأمر الآتى إلينا فى صباحنا الباكر..

- أمى أنها أم حسن

صرخت وشدت غطاءها بأناملها المتشبثة على حدود الألم

- أم حسن لقد عرفت الآن.. أنا سـألد بنتـاً.. آه.. آه من حظى العاثر

رد أبى بقنوط:

- لا تجزعى هكذا وما يدريك.. هيا تحـاملى واستندى على ذراعى فالوقت حان للذهاب إلى المستشفى..

ترد باكية:

- أم حسن يا أبا ماجد لا تأتينى إلا فـى كـل ولادة.. ولادة لا أتى بها إلا ببنت هذا هو فأل قادم إلى لـن يخيب أبداً..

وانهارت تبكى ونسيت آلام مخاضها وعاشت لحظة دخول أم حسن بيتها فى صباح ولادتها وبدأت تشد الغطـاء إلى فمها وتكز عليه بأسنانها تتلوى وتدفن وجهها فى حنايـا وأطراف وسادتها تذرف الدموع على آمالها التى تحطمـت بخطوات أم حسن إليها..

أم حسن جالسة فى بهو دارنـا وحيـدة.. خفنـا أن نقترب منها وتسألنا أين أمكم.. كنا ننظر إليها مـن فتحـات النوافذ والأبواب المتوارية.. صمت.. همس.. وشوشـات.. إلى أن تقدم أبى نحوها مرحباً:

- معذرة يا أم حسن اليوم شريفة تعـانى آلام الوضع ولا تستطع مقابلتك..

ردت بصوت ناعس:

- ربنا يقيمها لنا سالمة ونأتى لنهنئ بـالمولود القادم

- هل تأمرينى بشئ أقدمه لك

- لا يا ولدى ا معك ومعها

ونهضت من مقعدها تمشى عبر ممـرات الحديقـة بثوبها الطويل وخطوطه المستقيمة على الجـانبين ثوبهـا " مجدلاوى " كان يخلو من تطريز الورود وعندما كنا نسألها.. كانت تتنهد قائلة:

- تركنا ورود لنا فوق الروابى والتلال وهـذه الخطوط تلم الفراغ.. لحين عودتنا فتطرز على أثوابنا زهور الحياة..

ظللنا نرقبها حتى غابت خلف البوابة تشق طريقهـا من حيث أتت.. وسرعان ما عدونا إلى أمى حيـث تسـتعد للذهاب مع أبى إلى المستشفى..

- اسمع يا أبا ماجد أنا أريد أن ألد فى مستشفى المعمدان شرق المدينة

- ولكن.. لماذا؟

- أرجوك لا ترفض طلبى هذا

- إذن هيا بنا

بدأ الوقت يمر ثقيلاً الساعات تلاحق الساعات لم يأت أحد إلينا ليخبرنا عن أمنا.. جارتنا تسأل بين الحين والحين:

- هل وضعت أمكم؟

نجلس على درجات البيت ساهمات شاردات فى أمى وكلماتها إلينا.. وكيف تخلص الروح مـن الـروح.. وهـل ستنجو أمى وتعود لنا.. وهل لو عادت إلينا.. ستعود بالصبى أم صبية مثلنا.. وأم حسن التى جلبت لها الفأل الذى تخشاه.. أن تعود بالصبية..

لمنا ليل غزه فى مطارح لم نبرحهـا ننظـر إلـى عقارب الساعة التى تقتفى الساعة فى ليلة سهر معنا القمـر كان يطالعنا يهدهد خوفنا.. ولمسات امرأة الخـال كـاظم " فايزة " تحنو إلينا تضمنا.. تجهز لنا حلو طعامها تفـرد لنـا ضفائرنا وتجدلها..

- بعد بزوغ الفجر سآخذك إلى هناك
- إلى أين؟
- إلى مستشفى المعمدان لا تخبرى أحد بذلك

جلست بجوارها انظر شروق الشمس بيـدها التـى ضمتنى إلى صدرها تعاكسها ضفائر لى جدلتها وضـمختها بزيت زيتوننا.. واستوينا نستعد للذهاب إلـى هنـاك نأخـذ الطريق الطويل إلى أمى من شارع عمر المختـار عبرنـا بخطوات سريعة نحو الأمل الذى يخايل عيوننا.. آذاننا فـى كلمات قد تصل إلينا.. أن تأتى أمى لنا بالصبى

من آخر شارع عمر المختار إلى سـاحة السـيارات مروراً بمدرسة الإمام الشافعى.. ثم انحنينا يميناً إلى البريـة تقابلنا مستشفى المعمدان.. السادسة صباحاً.. فايزة بقميصها الأبيض القطنى وزنار يشد خصـرها علـى تنـورة بلـون شطآننا..

نقرت بكف يدها البوابة الخشـبية العريضـة سـاد صمت.. نظرتنى.. فتعلقت نظراتى عليها.. أعـادت النقـر وفردت راحة كفيها همهم رجل بالداخل:

- من؟
- نحن
- ماذا تريدون
- نريد السؤال

- عن من؟
- أرجوك افتح لنا البوابة
- لم يحن الوقت بعد

مضى وقت قصير فتحت شراعة صغيرة من قلـب البوابة الكبيرة وأطل الرجل بوجه يتفرس ملامحنا من الفتحة الضيقة وأنا أزدت التصاقاً بالبوابة الخشبية وأعـود ألتفـت ورائى فتطالعنى البرية فأمد يدى أتشبث بتنورتها ألوذ بها من خوف بدأ يجتاحنى..

البوابة خلفها ترقد أمى.. تطالعنا البرية..

- سيدى أرجو أن تساعدنى فى الاطمئنان على السيدة شريفة التى أتت هنا بالأمس.
- لم يحن الوقت لموعد الزيارة

كان صوته خشناً أجش.. قاسياً ووجهه دون ملامـح أذكرها.. ولكن دموع ترقرقت.. فتعانقت دمـوعى بـدموع فايزة عندما احتضنتنى وعادت بى من حيث أتينا قائلة:

- أنا أعرف خالتى شريفة ستعود إلينا سـالمة وبعد ساعات سيأتى عمى أبو ماجد ليفرح قلوبنا

من خاف البوابة الخشبية كانت أشجار السرو تلـف جوانب المستشفى مشرئبة فوق الأسوار وشقشقات وتنغمـات لأصوات العصافير.. مقاعد رخامية مترامية ما بين الأشجار وعصافير الدورى تتقافز تلتقط الحشائش وتعود محلقة إلـى أعشاشها.. وأمى ترقد على سريرها تحبس آلام المخاض ثم تطلقها بتحشرجات.. صرخات.. اعتصـارات فـى أنحـاء جسدها. التفت الراهبات حولها يهدئن من روعها.. والطبيب " مور " يقف يطالعها يرقب حركتها اقتربت الراهبة بوجهها المضئ نحوها:

- ماذا تتمنين أن ترزقى؟

ردت أمى وهى فى شهيق وزفير

- صبياً

فابتسمت إليها متسائلة:

- ألا أعجبك أنا؟

زاغت أمى عنها بعينيها بقلبها بهواجسها إلى هنـاك حيث الزيارة.. زيارة أم حسن وكلمات الراهبة فمادات فـى سريرها تتقلب فوق حصوات الجمر ترفع جسـدها وترفـع

ساعديها تلم أعمدة السرير الحديديـة وتصـرخ.. تصـرخ صرخات.. طلقات.. دوى إلى أن رفع الطبيب مور "الصبى"

رفعت أمى رأسها بكل قوتها لتنظر البشـارة فكـان مرفوعاً بين يديه يصرخ باكياً استنامت وغابت فى أحلامهـا وآمال اقتربت منها فبات الحلم حقيقة..

جاءنا أبى يزف لنا البشرى فدار الهمس عن الصبى الآتى إلينا.. انطلقت الزغاريد من فتحات النوافـذ.. النسـاء يهللن فرحات وعاب الحلوى وصوانى الحلبة والجميع بـات منتظراً عودة أمى بالصبى..

اقتربت من أبى

- ماذا تنوى أن تسميه

نظرنى مبتسماً:

- فلتسميه أنت

سادت لحظة صمت قطعته:

- عمر

ضمنى إلى صدره وربت على كتفى حانيا

- فليكن يا بنيتى لقد سميته عمر

لم أصدق نفسى أن يطاوعنى أبى فى انتقـاء اسـماً لأخى

جلست تحت دالية العنب وأمامى ممر الحديقة يسحب ذكرياتى هناك حيث مدرستنا " القاهرة الإبتدائية المشـتركة " وعمر وحكاياتى معه.. عمر الذى أتى مع والده إلـى غـزه ضمن الضباط المصريين الذين انخرطوا فى الحياة معنـا.. عمر كان مشدوداً فى مقعده المتحرك وعينى المعلقة دومـاً عليه أينما ذهب أكون أنا السابقة لدفعه بكرسيه ومعاونته فى الحركة أينما يشاء..

خرفشات أوراقنا فى أذنى.. نقص الورق نصنع منه أشكالاً جميلة.. زهرات.. ومراكب شراعية.. دبابات.. وجوه أطفال..

إلى أرض الوادى.. رحل عنا دون أن يترك عنوانـاً له هنا.. كان الاسم والعنوان محفوراً فى قلوب كثيرة أحبته.. وجاءنا الصبى عمر فكانت فرحتى بعودة أمل فقدته ولكنـه عاد.. ويوم عودة أمى حاملة وليدها سألت أبى:

- هل لك أن تأتينى بأم حسن لقد أسأت الظنون بها.. لن أرتاح ولن أسعد بوليدى إلا بقدومها لنا مرة أخرى أذهب إليها وأتنى بها..

العود الرابع

صيف ٦٧

مع كل عودة إلى أرض الوطن تأخذنى قدماى إليها.. أبوابها الحديدية موصودة.. فأمشى أحاذى أسوارها.. وأقـف انظر من خلف القواطع الحديدية ساحة مدرسـتنا "القـاهرة الابتدائية".. لا زالت الفصـول تلملـم أبناءهـا.. أصـوات المعلمات وهرج التلاميذ يمتزج فـى ذاكرتـى.. أسـوارها الملتفة تلم حكايات شجية.. تقترب خيالات الماضى البعيدة..

حين تقف مدرستنا تكتب بيد وتمسح بأخرى.. توزع الأسئلة وتتلقى الإجابات.. كانت هى مرآتنا من بداية يومنا.. يومها وقفت ملتفتة نحو النوافذ العريضة وألقت بالطباشـير من يدها وشخصت بعيداً فشخصنا معها.. كانـت العربـات تسير فى قوافل تكتظ بالجنود فى موكب حزين.. تـذكرتهم.. تذكرت ملامح وجوههم ملابسهم قبعاتهم التى كـانوا دومـاً يلوحون لنا بها.. ونحن نعتلى سور مدرستنا المطلـة علـى معسكرهم.. ومرات كثيرة نمد أيدينا إلـيهم فتطـال أيـديهم الحانية علينا.. فيلاحقوننا بابتساماتهم.. غاب نهارهم.. غابت شمسهم.. إلى.. لم نكن ندرى.. ولكنها وقفت تسـتند علـى جدار النافذة.. فوقفنا معها تلوح بيـدها تشـبثت بـالقواطع الحديدية ملوحة بكلتا يديها.. وقفنا جميعاً ننظرهم.. بكينـا..

ولوحنا لهم بالأكف الصغيرة بالمناديل البيضاء المطرزة بيـد أمهاتنا.. كنا نود لو ننثرها وروداً ولكن أسلاك النوافذ حالت بيننا وبينهم.. وقفت هى حبيسة النوافذ.. حبيسـة الجـدران والبوابات.. ننظر قوافل الجنود العائدة إلى الجبهة..

عدت إلى بيتنا والمشاهد كلها أمامى نظرات الجنـود فى موكبهم الجنائزى مودعين ملوحين لنا لم تفارقنى.. كـل شئ بات متغيراً أمامى حتى جيراننا من الأسـر المصـرية بدأوا فى لم المتاع استعداداً للرحيل، فأجراس الحرب تقـرع من بعد وباتت طبولها وشيكة ولكن تظـل سـاحات لعبنـا وضحكات طفولتنا فى النسمات الندية التى تطـرى تيـبس واقع يحيط بأهلنا.. دوما أبحث عن أبى فى أنحـاء حـديقتنا وأركان بيتنا.. ألاحقه بنظراتى دون أن يشعر بوجـودى إلا كعابرة أو لاهية بألعابى أو دفاترى أنظمها.. أرتبها.. ولكـن اليوم كانت أحداثه تباعاً يتحـرك مسـرعاً عبـر الغـرف والردهات برفع النوافذ الزجاجية من مطارحها ويـزج بهـا تحت الأسرة، اقتربت منه:

- لماذا تنزع النوافذ يا أبى؟

لم يعرنى اهتماماً.. مضى كمن يسابق الوقت.. أمى تقف تتناول منه وترص الشبابيك الزجاجية.. ثم مـا يلبـث يدور فى أنحاء البيت الكبير ينظر ما تم عمله ومـا ينـوى عليه.. يحمل فى يده لفافة لاصق.. أخذ يسـحبها ويلصـقها على المرايا وفتحات النوافذ الزجاجية الضيقة التى اسـتحال انتزاعها.. التصقت بأمى..

- لِمَ يلصق أبى اللاصق بالزجاج؟

- يخاف يا بنتى لو حدثت الحرب واخترقـت البيت قذيفة أن يتناثر الزجاج فيؤذينا..

كان وقع كلماتها غريباً على نفسى ولكنى أيقنـت أن ما سيمر بنا هى تجربة لا نعلمها جميعنا.. ولكن أبى معنـا يضمنا ويحتوينا..

صوت المذياع لم يتوقف عن سرد البيانات العسكرية بيان رقم١ بيان رقم ١٠ بيان رقم.. وأبى يقف أمام المـذياع ثم ما يلبث أن يعاود فى شد البطاطين الرمادية وتثبيتها فوق فتحات الشبابيك.. وأمى حائمة هائمة فى غرفة الخزين بـين أجولة الدقيق وحبات الفريك والعدس والصـغار يلاحقونهـا بأنفاس لاهثة ودقات صدور واجفة..

في حديقتنا ألعابنا كلها حربية نحفر الخنـادق ونلـم عيدان الدوالى المترامية نصنع منها البنادق وأحجار نلملمهـا فى أيدينا قنابل وأصواتنا تجأر فى البدء لهجوم لنعدو نحـو خنادق حفرناها نلوذ بها من الطلقات المتوالية من حناجرنا.. يطول بنا الوقت مرات ونحن نغرس عيوننا فى طين حفرنـا الضيقة فتكاد تسعنا.. ننظر منها إلى سمائنا زرقاء وطيـور تزقزق.. عصفت بنا صـفارات ونفاثـات تسـبق سـرعة أصواتنا..

انحنينا فى حفرنا الضيقة نرفـع هاماتنـا بحـرص وريبة.. أسراب.. أسراب هى الطيور الجـوارح.. نسـور البرارى تزمجر وتخاف وراءها دخاناً أسود يرسم صـورة الحرب التى اقتربت منا أكثر وأكثر..

هبت أمى تنادى..

- هيا إلى الداخل..

تعدو فى الحديقة ظهرنا لها لمتنـا كدجاجـة تضـم فراخها.. وظلت نظرات خوفنا شاخصة فـى سـمائنا مـن فتحات النوافذ وتعود الأسراب مرة أخرى فتتحول نظراتنـا إلى فزع يدك عظامنا..

صوت أبى:

- الليلة ستنام كل منكن على سريرها.. ولن نتجمع فى مكان واحد..

- إنها الحرب..

طوانا ليلنا الزاحف.. أويت معه فى سريرى وأختى تجاورنى فى سريرها..

البطاطين الرمادية تلف نوافذنا صوت أمى فى الغرفة المجاورة تهدهد صغيرها أسدلت الجفون وأبى لم تتوقف خطواته فى أنحاء البيت وسكن كل شئ فى بيتنا فى حديقتنا فى شارعنا.. انتفضت فى فراشى على صراخ أختى بجوارى.. الطائرات تغير وترمى بحمولتها على قلوبنا.. لم يتحمل قلبها وقع القذائف الملتهبة.. كان نومها يقظاً لسماء غزة الذى تحول إلى ساحات دخان ووهج.. إندفع أبى نحوها يحتضنها يلملم خوفها وبيده قلم ينير نور خافت.. أصابتها هيستريا الصراخ.. أبى يهدهدها..

- بابا أشعل النور.. أنا خائفة..

يضمها بقوة:

- لا تخافى أنا هنا بجوارك..

- أبى النور.. أشعل النور.. أخاف العتمة

وغابت عن وعيها.. بدأ أبى يضغط علـى جسـدها يهزها بأن تستفيق.. وما تلبث تسترد أنفاسها حتـى تتـوالى طلعات أخرى.. نباح كلبنا يعلو يلف دويها يقطع أزيزها يدق على بابنا ليحتمى بنا يطلب ملاذاً.. هكذا كانت ليلتنا الأولـى فى حرب الغارات علينا..

يجمعنا أبى فى النهار فى ردهة داخل البيـت وفـى الليل ينام كل منا فى سريره.. ولم يتوقف المـذياع يسـابق الريح ينقل أخبار المعارك والانتصارات فى مدن هنا ومـدن هناك وموقع هنا وموقع هناك.. ولكن ظلـت حـديقتنا هـى الحدث الذى حملنا إلى معاركنا البعيدة البعيدة..

أندفع الجنود مجموعات عبر الممـرات والشـوارع الخلفية يقفزون على الأسلاك فوق الأسـوار علـى أسـطح المنازل فى المناطق المهجورة إلى أن حطوا فى حـديقتنا.. خرج أبى إليهم.. حفاة مهلهلين الثياب مجردين من السـلاح بزاتهم العسكرية قد يظهر منها شئ عليهم بنطال.. قمـيص يترنح من على الأكتاف ذقونهم شعورهم كثة..

وقف أبى بينهم تهامس معهم.. أتى بالخرائط يشرح لهم ليعبروا إلى ممرات آمنة وسط نظرات زائغـة وقلـوب كسيرة شق طريقة بينهم ليحمل ملابس يرتدونها ليواصـلوا طريقهم عبر الحدائق وبيارات البرتقال إلى حيث خـط لهـم أبى على ورق الخريطة..

دخل أبى إلينا.. واجماً محسوراً نظر إلـى المـذياع الذى ما كف يحكى عن انتصارات وأسـاطير البطـولات.. خاطب أبى..

- اقفلى المذياع..

اقتربت منه فأشاح بوجهه عنى وتمتم:

- اتبعينى..

دخل أبى غرفة مكتبه ومكتبته العملاقة التـى تلـف جدرانها..

- هاتى لى بحطب سأشعل النار فى الموقد..
- الجو صيف وحر قائظ
- ما الخبر
- هيا لا وقت لضياعه..

اشتعلت النار فى موقدنا وأطاح أبى بـأوراق كـان يمزقها ويلقيها.. يمزقها يلقيها.. لفنا دخانها.. فأدمعت عيوننا على صيف حار قائظ.. على صيف ٦٧..

العود الخامس

فرش العجين

في صباح غزه الحزين حوطنا صمت موحش وولع أشعل القلوب شغفاً عما دار ويدور في شوراعنا في بيوتنا.. هدأت نار موقدنا.. وغمغمات بكاء أخوتي وهدهدة أمي لهـم بكلماتها السابحة في كياني الرابض فوق سريري..

- أخاف أن يمتد الطوق لأيام طويلـة ونفـاذ المؤن لدينا.. اليوم فتح أبو زاهر الفرن ليساعد أهل الحي في خبز رقائق العجين..

- وأنت يا بنيتي استعدي لتأخذي فرش العجين إلى فرن عمك أبو زاهر..

- ولم أنا؟

- أنت أكبر أخوتك وعندي أمل بأنك ستنجحين في الوصول إلى هناك..منع التجول يمنعنا نحن الكبار مـن الحركة..

- هيا استعدي

جف حلقي وضاعت أنفاسي ولكني أزحـت غطـاء سريري عني وبدأت استعد لحمل فرش عجيننـا.. مشـيت بخطوات هادئة عبر ممر حديقتنا تتقدمني أمـي لتفـتح لـي بابها.. واندفعت قدماي نحو الشارع الذي لفه ضباب الصمت

أحمل حملاً فوق رأسى ويداى متشبثتان بـالفرش الخشـبى، ومن آخر شارعنا تنفست الصعداء وزفرت لانحنى لشـارع جانبى..

سد باب الفرن بألواح خشبية ومن فتحة ضيقة كـان الناس يندسون من خلالها أنفاراً متفـرقين.. وأنـا بجسـدى النحيل انحينت بفرش عجيننا لأمر من الفتحة الضيقة لأجـد الفرن مشتعلاً والأرغفة منتفخة داخل ناره الحامية..

ما أن رآنى أبو زاهر..

- ما هذه البطولة!!.. هيا ناولينى فرش العجين

تلقفه منى وأخذ يفتح القماش القطنى على الأرغفـة المتراصة فبدأ يزج بها بخفة ورشاقة داخل الموقـد فتنـتفخ وتعلو فيلاحقها بالكف الخشبية الطويلة.. يخرجها إلينا فينخر هبوها فى أنفى.. وأنا أجلس القرفصاء بجانب الفرش الخشبى وأوسع مكاناً لرص الأرغفة الساخنة فتلتهب أناملى.. أتنفس دخانها فتهبط قليلاً..

- هيا.. لتستعدى للخروج

ورفع الفرش الخشبى بعدما لف الأرغفة بعناية وقال لى:

-        فى رعاية ا

تشبثت بالفرش مرة أخرى وبـدأت قـدماى تشـق ضباب الطريق وطبول ترافقنى تخرج من صدرى فى دقات فزعة أتعثر بها فى نزولى من أعلى منحدر شارعنا..

نظرت الطريق فبدا لى بيتنا بعيداً بعيـداً.. متواريـاً إلى أبعد مدى.. ولازال الشارع طويلاً ولا زالت خطـواتى ممتدة..

جسم ضخم يقترب منى يتهادى ببطء.. لا أمل فـى التراجع والفرش الخشبى يضغطنى إلى أسـفل إلـى قـاع الأرض ولكنى لا زلت أمد الخطى والجسـم يقتـرب منـى والأرض تميد بى وأنا أنغرس فيها أكثر وأكثر.. ومجنـزرة تلتف نحوى والجسم الضخم يتعملق أمامى..

أسير بطول سورنا فأسرع الخطى وأصم أذنى عـن صوت متاريس تقترب منى لتهرسنى وأغرس نظراتى أسفل قدمى فأسترد شجاعتى وصلابتى فألقى بالفرش الخشبى على عتبة دارنا.. أدفع البوابة بكتفى لأجـدها موصـدة أتسـلقها بجسدى إلى الداخل فتهب أمى نحوى تتلقفنى يداها.. الدبابـة تعتلى دارنا.. بابنا.. صوت مكبر الصوت

- أدخل بيتك

تضمنى إلى صدرها.. أتنفس دفئها..

- أمى الفرش بالباب لقد أحضرت لكم خبزاً ساخناً.

العود السادس

البوابـــة

تشرئب أعناقنا من خلف سور حديقتنا الـذى خلنـاه يعلو ويعلو ليحول بين أبصارنا وأسماعنا فنرهف الآذان على الأصوات المنزوية والوشوشات الهائمة فوق سمائنا..

فتح بابنا الخشبى المطل على حديقتنا فتسحب شـعاع شمسنا بنشر الدفء فى قلوبنا يلملمنا فتنـدفع معـه أقـدامنا صوب حديقتنا نبحث.. نفتش عن أشياء تركناها وتسـاؤلات تحوم فى عيوننا.. أتراها بقيت أم ذهبت ودثرت؟!

كل يفتش فى الزوايا والحنايا ما بين فـروع دوالـى العنب.. نفتش عن بيوت بنيناها من طين أرضنا وكيـف آل حالها

صوت أختى تنادى:

- أبى هذه آثار قذيفة فى ممر بيتنا..

يرد أبى بصوت العارف:

- حمانا ا يا بنيتى

كانت قذائف متناثرة فـى أرجـاء حـديقتنا وعلـى أسوارها.. قذائف نحاسية مفرغة بدأنا نقترب منها تتفحصها عيوننا من على بعد نمد أيدينا الصغيرة المرتعشـة.. نحفـز قلوبنا نلمها بأناملنا نقيمها من مرقـدها فتطـال رؤوسـنا..

ينعكس عليها شعاع الشمس على الجسم النحاسى فتتوهج فى عيوننا تخطف أبصارنا ننظرها وننظر وجوهنا فيها..

- انظرى إليها.. أنها قذيفة مفرغة
- هل نحشوها رماداً فتصبح ثقيلة
- لا سنحملها إلى أبى ليرى ماذا وجدنا

نسمع دقات ببابنا.. نلقى ما بأيـدينا ونهـرع نحـو البوابة أنها الطرقات الأولى فى أيام الانتظار الطويلة تقـدم الجميع نحو البوابة أمى ترهف السمع وتشير لنا بإصبعها أن نلوذ بالصمت

- من؟
- أخوك أبو ياسر
- أنه خالكم فاروق

تزاحمت السواعد نتسابق لدفع المزلاج وفتح البوابة لأول قادم إلينا من بيت جدتى فى حى الشـجاعية مـن أول مدخل لمدينة غزه من ناحية الشرق.. فتحت بوابتنا الحديدية للخال القادم إلينا..

غاص فى حضن أمى ودموع خالى تتساقط من على كتفها وساعداه يحوطانها وكلمات مكتومة

- أخويا أنت بخير

- أمى.. أخى كاظم أم كمال وأم ياسر والجميع كتب ا لنا أن نتقابل ونلتقى..

لفها بذراعه يحوطها ومشينا عبر ممر حديقتنا نلتف حول الخال القادم إلينا بحزن يطوف بنا ثم يحط على قلوبنـا ولسان يلف فى حلوقنا عن السؤال عمن ذهبوا ومن بقـوا.. انتحينا فى الغرفة الزجاجية.. شمس غزه الحزينة تضرب فى أركانها فتهتز عناقيد العنب وتمتد أوراق الدوالى إلينا لتحمل حكاياتنا وتغوص بها فى أعماق الأرض لتجذر وتمتد وتمتد.. صمت حزين لفنا..

- كيف استطعت الوصول إلينا؟! احكى لنا عن حال الطرقات والمدينة وناسها..

جلس الخال وزفر بأنفاسه وامتدت يده إلـى علبـة سجائره أخرج لفافة أشعلها فطاف بنا دخانها ينخر أنوفنـا.. وعيوننا عليه شاخصة..

- أنا عائد لتوى من أطراف المدينة ذهبت إلى منطقة المنطار..

هلعت أمى:

- كيف ذهبت إلى هناك؟!

- ذهبنا نفتش عن أمواتنا يـا أختـى شـريفة

جاءنى أبو صالح أبو مهند.. دموع الرجال يا شريفة كانـت أقوى من الخوف.. ساقتنا أقدامنا إلى أجداث مترامية علـى تراب الأرض تنتظر سواعدنا لتحملها لتدفن حكاياتهـا مـع البطولات الشاهدة.. كانت البطون منتفخة والـروائح نتنـه تطوف فى عيوننا وصدورنا.. ونحن نقترب وتـزداد منهـا اقترابا نتفحص الوجوه والملامح كى نعرفها وتعرفنا.. منهم من أنكرنا وأشاح بوجهه عنا فى ملامح حزينة عصية ومنهم من نظرنا ونظرناه.. انتزعنا خواتم الخطوبة منقوش عليهـا أسماء وتواريخ.. وخواتم الزواج. وساعاتهم تلف المعاصم لا تكف تدور وتدور فكل ساعة منها حكاية وعقارب تشير إلينا وإلى آخرين.. عقارب لها حواف السـكاكين التـى أماتتنـا واحيتنا من جديد لنعود نحكى لكم الحكاية وكل الحكايـات.. مددت يدى فى الأجداث افـتش عـن أوراق الهويـة افـتح البطاقات وأشاهد الصور الشاهدة.. صور لمفتول العضـلات وسيم الملامح وابتسامة تغرد فوق القلـوب أطيـاف خـدره والجسد فانى اسلم واسلم دون استسلام..

هبت أمى:

- وشريف وجدته؟

صمت الخال وطأطأ رأسه إلى أن تدلى على صدره وكتم عبراته

- شريف..

- نعم يا فاروق شريف

- يقولون أنه كان فى سلاح الدبابات وأنه قاتل إلى أن.. ولم يترجل من على دبابته..

- يقولون أنه مات والرشاش فى يده وجسـده هوى من على مقدمة الدبابة يحتضنها بكلتا يديه..

- شريف!!

- يقولون كل هذه الحكايات.. أنـا لـم أدفـن شريف ولم أعثر على خاتم خطبته.. فتشت عنه كثيراً فتشت عن ملامح قريبة منه.. فتشت عن فارس ذهب طائراً تحمله ذرات الرمال ليواجه.. يقاتل ويأتى بالنصر مع أكاليل الغـار يرجع إلينا يرجع إلى عروسه..

فتشت وجدت من يشبهه كثيرين ولكن أجداث أجداث ضاقت عليها بزاتها العسكرية تفسخت منها وانطلقـت إلـى

عالم أوسع من عالمنا لا يهابون فيه الموت بعـدما اقتحمـوا قلاعه

انفجر خالى فى بكاء كدتها قهقهات ضاحكة بل هـى نوبات بكاء تذرف منها العبرات فبات ضحكنا يشابه بكاءنا.

العود السابع

على عتبات الانتظار

.. يطول حصارنا فيكسرها أبى بصـوت المطرقـة والسندان لأسياخ الحديد المنبعجة يضرب بـدقات منتظمـة ويحملها الصدى لتلاف تنزع حصارنا تفـك طوقنـا وتنفـرد الأسياخ لتعتلى تكعيبات العنب فتشب عليها الدوالى كشـلال يمتد ويعلو هديره فى صدورنا فى محاجر عيوننا.. طرقـات المطرقة تزامنت مع طرقات على بوابتنا ولم تتوقف يد أبـى ولم يتوقف الطرق على البوابة.. اندفعنا نحوها لنستعلم مـن القادم إلينا..

همست لأختى:

- إنها أم شريف!!

عدونا إلى الداخل لننقل الخبر إلى أمى، وانزويت فى بهو الدار ارقبها من على بعد وهى تقترب منا بخطوات ثقيلة ووجه فيه حمرة نارية بأهداب استنامت عن بصيص لنور قد يطل من عينيها وكف يدها يضم منديل قطنى والأخرى حقيبة يد سوداء..

تقدمت أمى نحوها مرحبة..

- مرحب أم شريف خطوة عزيزة

ردت بصوت خفيض وجسد تكاد تقيمه..

- أهلاً بأختى شريفة لقد عدت لتوى من مقـر الصليب الأحمر

- الصليب الأحمر لماذا؟

- أبحث عن شريف من بين أسماء المفقودين.. الأسرى.. الأموات ولكن دون جدوى.. لم أعثر عليه بين كل هؤلاء.. وفى كل مرة يقولون لى عودى إلى دارك وسنرسل لك خبراً لو جاءتنا معلومات عنه..

ساد صمت حزين وعادت لعبة النظـرات الحائمـة تعتمل فى مجلسنا ثم ما لبثت العبرات تلملم من على أطراف المناديل.. تتنهد ملء ضلوعها وتخرجها آهات ..

- آه لو أعرف مكاناً له..آه لو اسـتدل علـى تراب طواه فأذهب إليه.. اعرف له عنوان..

ثم تستفيق وتصحو من غفلة الحزن الذى يسحبها إلى جب عميق..

- شريف عايش.. شريف عايش.. شريف ابنى لم يكذب على أبداً أبداً..

وبدأت الرحلة الطويلة من مبنى الصليب الأحمر إلى باب دارنا.. والحكاية هى حكاية الانتظار حكاية الأمل الذى

يولد على عتبات مبنى الصليب ويوأد على عتبة دارنـا، ولا زالت تجرجر خطواتها إلينا وتحكى لنا عن يوم رحل شريف عنها..

- جلس على ساقىّ وتربـت علـى سـاقها.. واحتضنى قائلاً:

- أمى أول يوم عودتى سنجهز ليوم العـرس ولتكن فترة غيابى هذه فرصة لك تدبرين أمورك..

- فلتهنأ يا حبيبى وتعود لنا.. وسيكون عرسك من أجمل ليالينا.. كان هو اليد الحانية على.

تلفتت إلينا تستعيد إصرارها عزيمتها مـن نظراتنـا المعلقة بملامح وجهها الحزينة..

- غداً سأعود ثانية إلى مبنى الصليب قد يكون أسيراً أو مصاباً وأجد شريف..

يلجمنا صمتنا لتبقى كلماتها هى التى ترن فى بيتنـا وتضرب فى آذاننا مع صوت المطرقة فتلتصق على عتباتنا على جدراننا على بلاط دارنا فى تحدى المطرقة والسـندان يظل شريف حكايتنا وتظل هى تنتظر كل يوم يأتى إليها..

ذاكرتى لم ترسم قسمات وجه شريف الذى ظل فـى حضن الغياب والوجع.. كنت ارسم ملامحه وانسجها مع كل زيارة لأمه إلينا.. ومع كل مرة تتغير ملامح وجهه مـرات تكون قريبة ومرات بعيدة.. وأحياناً يلفها الضـباب فتصـبح خيالات هائمة تنتقل من مكان إلى مكان مع هبوب الريح يهيم معها..

ولكن ظلت صورة "لحامد" ذاك الفتى الأسمر فـارع الطول أجش الصوت هى التى أحملها فى ذاكرتى يوم جاءنا بقميص أبيض أضاء سمرة وجهه يحمل أشياء أرسلها أبـى معه ليوصلها إلينا.. كانت أمى فى الحديقة تجلس على حافة الممر وسلة السمك أمامها تنظفها.. السمكة بيـدها وسـكين تنتزع قشر السمك فيتطاير فى كل مكان..

وقف حامد

- خالتى جئت لأودعكـم.. أنـا ذاهـب إلـى الجبهة..

لم تتوقف سكين أمى عـن نـزع قشـور السـمك المتطايرة انهمكت فيها تنهدت وزفرت..

- اللقاء ليوم اللقاء يا ولدى.

التف حامد بجسده ويده تستند على الجـدار واسـند وجهه بساعده وبكى.. بكى فى صمت على باب دارنا إلى أن غاب عنا إلى آخر الطريق.. ولم التق بفتـى أسـمر أجـش الصوت يرتدى قميصاً أبيض يعكس نوراً على سمرة لفحت وجهه كلما هبت رياح الخماسين بذارت تراب تعمى عيوننا.. كنت آراه زائراً معها من تراب سيناء إلينا يدق أبوابنا يمسك بساعد أبى ويطرق معه طرقات تسافر مـع تـراب الأرض حيث حامد.. وحيث....

العود الثامن

فى ليلة ثلجية

ولأول مرة ننفلت من أغلال طوقتنا وأدمت أجسادنا.. فانطلقنا فى أرجاء غرف البيت نلم حاجياتنا وتشد أمى الحقائب من أعلى الخزانات تنفض غبارها والعيون تتسارع لتأخذ لنا جنباً نلم أشياءنا فى تلك الحقائب وأبى يسير عبر ممر الحديقة ببزته وربطة عنقه يتأمل الأشجار المترامية على الجانبين من ليمون وبرتقال وأوراق العنب تمتد كبساط أخضر يلم جنبات بيتنا ثم يأخذ طريقه متسلقاً للأدوار العليا بعدما رسم أبى بيديه طريقاً لدوالى العنب المتعربشة..

كان يقطع وقت انتظاره لنا فى تفحص وتفقد ما زرعته يداه وقطوف العنب التى غلفها بأكياس ورقية مثقوبة لتمنع العصافير من إتلافها.. وكل زائر تقوده قدماه إلينا يقف عند أول درجات البيت المحاط بالدوالى يقول:

- يا إلهى أتزرعون المانجو!

ويأخذون أنفاساً عميقة متلفتين متسائلين..

- أين شجرة المانجو؟!

وبلغة الفكاهة يوصلون التساؤلات

- هل أصبحت غزة بلد المانجو؟

دوماً أبى يقف كمارد تحت دوالينا ينظر إلى الداليـة التى طعمها برائحة المانجو وأوراقها الليفية الغريبة أخال يده سارحة فى كل حنايا وزوايا الحديقـة.. فـالقطوف حمـراء عنابية.. والمذاق ممزوج بعبق المانجو.. إنها الداليـة التـى دوماً يفخر أبى بأنه الوحيد الذى نجح فى تطعيمها بهذا اللقاح وأنها تثمر ما يقارب الألف قطف من العنب الأحمـر بلـون العناب..

وها هو أبى يحمل بين أصابع كفه مقـص الشـجر ليقطف به عناقيد العنب ويرصها فى العلبة الكرتونية فيستنيم له الواحد تلو الآخر لنحملها معنا فى أول رحلة لنـا نقطـع التلال والوديان ونصعد الجبال إلى بلدة أبـى دورا "قضـاء الخليل"..

الهرج والمرج لا زال دائراً داخل البيت والتساؤلات تصب فى أذن أمى عن بيت عمتى.. وبلـدة أبـى.. وكـم ستستغرق رحلتنا إلى أن احتوتنا السيارة التى جـاءت إلينـا لتقلنا إلى هناك.. لأول مرة مـن سـنوات طويلـة تطوينـا الطرقات إلى أبعد من حدود شمس غزة التى تركناها وراءنا

وعند آخر نقطة لها كانت البرية تقابل القادم إليها أو الراحل عنها.. تطلعت عيوننا نحوها وسادنا الصمت قطعته أمى:

- فلنقرأ الفاتحة يا بنات

كان زجاج النوافذ مفتوحاً فتتطـاير خصـلات مـن شعورنا المنفلتة وأبى يجلس بجوار السائق وأمى غارقة فـى المقعد الخلفى وسط بناتها ونـداءاتهم لهـا عـن تسـاؤلات وفضول لهذه الرحلة كانت هذه أول مراحـل فـتح الحـدود المغلقة بعد هزيمة صيف ٦٧ ظهرت لنا مشارف بئر سـبع التى تفصل ما بين غزة وباقى مدن الشمال مـن فلسـطين.. تحدث السائق إلينا:

- هذا هو أول حاجز للتفتيش فليستعد الجميع.. مع إبراز بطاقات الهوية..

رددت أمى بنبرة واهنة:

- ربنا يستر علينا

توقفت عجلات السيارة أمام الحاجز المقام بالمتاريس وجحافل جنود مدججين بسلاحهم.. بعضهم يتحدث العربيـة بطلاقة..

وقف بالباب المجاور للسائق يميـل بجسـده نحونـا وعيناه تكادان تقفزان من مطارحها.

- هوية.. فين رايحين؟

- إلى مدينة الخليل

مد رأسه داخل السيارة لتلتقط عيناه ما تحت المقاعد وما خلفهما ثم ينظرنا يحدد ملامح كل واحد فينا ونحـن لـم نسقط عيوننا عنه ولا عن فوهة رشاشات رفاقـه المصـوبة نحونا ركز بناظرية على أمى:

- كل هؤلاء بناتك

كنا وأخواتى وأخى الوليد نقارب العشرة.. ردت أمى بنبرة الغضب والتحدى:

- نعم أنهن بناتى

لم يلتفت أبى إليه بل ظل شاخصاً فى الفضاء الـذى غلفنا على أول الطريق إلى مدينة الخليـل.. أكمـل المجنـد حديثه لها بلغة التعجب:

- هؤلاء غدا سيكونن أمهات..

قاطعه السائق:

- هل نمضى؟

ابتعد قليلاً لينضم إلى باقى رفاقه الواقفين الشاخصين إلينا فى دهشة تسمروا لها ومضينا لتبدأ الأحاديث عن ما قاله الجندى لنا وأبو محمود يحدث أبى متفاخراً ويضغط بقدمـه على دواسة البنزين فتنطلق السيارة بنا وتزداد سرعتها:

- إن لدى من الأولاد ثمانية وزوجتى ستلد فى الأيام القادمة.. نحن نحتاج إلى شعب لتبق المقاومة كالشلال الدافق.

أبى كان مقلاً فى حديثه كان شارداً ينظر الطريـق.. كأنه يتصفح جوانبه يقرأ ماض وتاريخ.

بدأت الأبنية تعلو وتشق لتعانق السـماء والجسـور والإشارات المرورية الإلكترونية الحديثة..

- انظر يا أبى هذه أشياء لم نرها من قبل

التفت أبى إلينا.. وعاد ينظر البنايات فى كل مكـان واللافتات البراقة للمطاعم والسينمات وبيوت اللهو..

- كل هذا سيزول.. كل هذا لن يدوم لهم.

وتوقفت كلماته ليعاود حديثه مع أبى محمود

- هدئ من سرعتك يا أبى محمـود.. انظـر هناك هذه هى آثار معركة الفالوجا عندما وصل إليهـا عبـد الناصر ورفاقه من الضباط الأحرار..

توقفت السيارة ومد أبى يده يشير إلينا على الربـوة التى دارت عليها رحى الحرب وأماكن عسكر فيها الجـيش وغرفة القيادة.. كانت الربوة خالية من العشب الأخضر الذى اعتدناه يفرش تلالنا.. كانت بقايا حريق اسودت لهـا الأرض ولم تنبت فيها نبته تنبض حياة

- إنها ربوة الفالوجا.. هنا.. كان.. هنا

وتقطعت كلماته فى غصة ابتلعها ليسود الصمت مرة أخرى ليعلو ويدور محرك السيارة لنأخذ طريقنا فـى قلـب صحراء بئر السبع..

اتسع الطريق أمامنا ككف منبطسة تلوح لنا من البعد شجرات باسقات تحاكيها قطعان الأغنام وخيام متناثرة للبـدو الذين حطو رحالهم حول ينابيع المياه ويقطع أبى دوماً غيوم الصمت التى تسافر معنا بكلمات يخاطبنا فيها..

- هؤلاء هم البدو الرحل من مكان إلى مكـان حاولت سياسة الاحتلال أن تحصـر وجـودهم فـى مكـان

يستقرون عليه وتبنى لهم بيوتاً ليناموا تحت سـقفها لكـنهم رفضوا وفضلوا حياة الخيام والتنقل فى ربـوع الصـحراء فظلت فلسطين لهم وهم لها وابقوا على حيـاة البـداوة فـى الحفاظ على الأنساب والبطون التى انحدروا منها.. فهـؤلاء بدو العبادله والترابين.

ومع عجلات السيارة الدائرة تتوارى صـورهم لتقابلنـا غابات السرو المتفرقة من البعد ولا تكف عجلات السيارة تسرع وتمتطى الطريق وخيالاتها التى تلاصقنا تحت وهـج الشـمس ببرك مائية تلمع فى عيوننا تجذبنا إليها لتزداد سـرعة سـيارتنا لمياه تطفئ شرر تحدثه العجلات بالطريق الأسفلتى التى مـا أن نصلها حتى تبتعد عنا تخايلنا وتعود السيارة تلاحق وهج الشمس وخيوط تشابكت ببرك مياه تغرق الطريق ومن أعالى صـحراء النقب بدأت تطل علينا الهضاب، والصمت يسودنا والعم محمود يدير مفتاح المذياع لتشدو فيروز على الطرقات إليك يـا مدينـة الصلاة.. أصلى.. عيوننا إليك ترحل كل يوم..

فيتندى وهج الشمس لصوتها فتبدأ رحلة رحيلها إلى مستقرها زاحفة نحو الغرب حيث تذكرنا مدينتنا النائمة فوق

التلال والتى دوما ليلها حزين يضئ وجهه القمر.. يخاطـب أبى أبا محمود وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- لا تنس سنصلى فى القدس يا أبـا محمـود ونحن فى طريق عودتنا من "بيت جبريل"..

ويعلو صوت السيارة وهى تمتطى الـتلال بعيونـنـا التى تخترق الزجاج وتطوف من عليها نحلم بالوصول إلـى بلادة أبى وكيف سيكون شكلها ووجه عمتى..

وما أن نصعد حتى نهبط مرة أخرى وتـدور فـى أحشاء الجبال التى ظهرت لنا ولأول مرة تراهـا عيوننـا.. صخور ناتئة تطل على الأحراش تحرسها زهور برية..

بدت لنا بلادة " دورا " كنجوم لامعة التصقت بالأرض لتنفض من على أجفانها غفوات النوم وسط هالات الضباب.. ومنها قرى مبعثرة هنا وهناك سلاسل متراصة من الجبـال ذات صدوع وفجوات وشعاب.. وبصفرة الليل أخذت شعاب الجبال المتموجة وصخورها الناتئة ترتجف فى هدوء وكأنها تغادر أماكنها خلسة لقمم تثقب السماء كأظافر واخـزة فـى أكف عملاقة.. فتمتد إلى النجوم لتختلط بهـا تزيحهـا إلـى

طريق الشموخ.. نسمات باردة تصفح وجوهنا استدارت أمى تفتش عن ملابس صوفية تلف أجسادنا بها..

والسيارة بدأت تترنح وتتباطأ لحظة لاح لنا من البعد " جبل الناموس ".. أشار لنا أبى بيده:

- هذا هو بيت أختى فاطمة

كان يعتلى قمة الجبل راسخاً مطلاً علينـا ينتظرنـا بعدد سنوات الغياب.. ما أن توقفت عجلات السـيارة حتـى شق الفضاء صوت ملهوف متخبطاً تتلاقفه الصخور إلى أن رحل إلينا فتبيناه أنه صوتها:

- أخويا محمد

اندفعت نحوه تمد يدها إلى رأسه وتقبله على الجبين وتعانقت كفاهما وتلثمهما وهو ممسك بها يلم رأسها يدفسـها فى صدره ويمد بكف يده على رأسها..

- لقد عدت إليك يا فاطمة

تحشرجت نغمات صوتها المكتومة وأخذت الزغاريد تطوف بآذاننا والنساء ينادين بأصواتهن من على سفح الجبل لأهل " دير رازح " وأهل " دير العسل " يعلنون خبر وصول محمد بن عبد القادر.. عمتى التى طالما تحدث أبـى عنهـا

ولأول مرة تقع عيوننا عليها بقامتهـا الممشـوقة وعينـان عسليتان مطعمتان بخضرة الجبال فى ربيعها فتحار فى لونها من عسلية أو زيتية ولون وجهها الصافى كصفحات مياهنـا رقراقة ترتدى ثوبها المطرز بكل الحكايات رسـومات مـن خيوط حريرية اعتلت صدرها لتأخذ جنبات ثوبها لتنساب إلى ذيله.. وزنار من القماش فيه لون العناب لفته بخصرها شدته وأحكمت به من وراء ظهرها بعقدة تـدلى منهـا قماشـة.. وأكمام ثوبها تنزل من أعلى كتفها فيزداد اتساعها لتلمها من الأمام وتثنيها وتعقد الردنين من أمامها وتزيحها خلف ظهرها فتظهر أكماماً لرداء آخر ترتديه من تحت ثوبهـا.. بغطـاء رأسها الأبيض المضمخ بماء الزهر وقد حاكت على أطرافه الورود وأوراق الريحان وما أن دخلنا البهو الكبير بالأسقف القبابية المدلاة منها أسياخ حديدية معقوفة من آخرها..

أضيئت القناديل وأمسكته حليمة ابنة العمـة فاطمـة بالمخطاف ليحمل القنديل وتعلقه بالعقلة المعقوفة فى نهايـة السيخ المتدلى.. بهو الدار كان يعلق فيه ثلاث من القناديـل التى تتوهج لها صوت يستشرى الدفء فى عروقنا ننظرهـا متدلية من أعلى القباب وأجسادنا ملقاة على الفرشـات التـى

ألقتها حليمة بعدما شدتها من فتحات كبيرة نحتت فى الحوائط لتلم الفرشات نهاراً وتفرشها ليلاً وتغطى هذه الفتحات ستائر بيضاء مطرزة ترتاح لها العيون.. أخذت عمتى ركناً علـى فرشاتها تخلع غطاء رأسها فشخصت عيوننا عليها..

أنها ترتدى طاقية صوفية مغزولة من صوف الماعز بألوان حمراء.. سوداء متداخلة فيها ورصت على جوانبهـا جنيهات ذهبية تبدأ من الحواف مدلاة جنيهات كبيرة وتنتهـى كالشكل الهرمى إلى أرباع جنيهات لتتدلى من جانبيها خيوط سميكة مغزولة تشدها لتعقدها أسفل ذقنها لتنتهى بجنيه ذهبى كتب عليه بالكوفية "قسطنطينية"..

وما أن التفتت إلينا حتـى لمحنـا ضـفائرها التـى ضفرتها بقماش يتدلى من طاقيتها فتثبتها بضفائرها..

- ما هذه يا عمتى؟
- إنها "العراقية" ورثتها عن أمى وأمى ورثتها عن جدتى زبيدة ويوم أخلعها عن رأسـى لآخـذ حمـامى يصيبنى وجع الرأس فأسرع أسرح شعرى وأعقد ضـفائرى بقماشها.. فتزيح عنى ما أصابنى بدونها.

ما لبثت عمتى أن نهضت واضعة " غدفتها " غطـاء رأسها على عراقيتها وأسرعت تنـاول الصـوانى الفضـية الكبيرة التى جهزت عليها طعام العشاء على مصباح القنديل وصوته الذى أدفأ صدورنا..

خبز.. وزعتر.. وزيت.. فى بيـت جبلـى.. بيـت عمتى.. فى غروب يومنا يلتهم جوف الليل مدينتنا فتتسـاقط النجوم نمد أيدينا إليها نلملمها فى أكفنا تتساقط منا لتنام فـى مقل العيون

حليمة تستعد تشمر عن ساعديها لتحمل صفائح المياه الخاوية إلى البئر لتملؤها

- خذينى معك يا حليمة
- هيا

كان البئر خلف الـدار رصـت حولـه الأحجـار الصخرية فارتفعت به وشقت درجات له لنصعد عليها والدلو المطاطى بالحبل المتكوم بجانب باب البئر تقف حليمة تشـد طولها وتسحب أنفاساً لهواء جبلى، تملأ رئتيها تلتقط الـدلو وتفتح الباب الحديدى..

انبطح وأتشبث بفتحة الباب وأزوم فى صوتى فيـرد الصدى أسماء أخواتى أرددها.. ميساء.. ميساء.. سـلافة.. كريمة.. ما.. ما مليحة.. لطيفة.. بسمة.. بسمة

وتقف حليمة تنظرنى.. وما أن ازيح رأسى ويتسـع الفراغ أمامها حتى تلقى بالدلو فيسقط مترنحاً متهاوياً فى قاع البئر تتقاذفه الصخور واسمع صوته يشـق عبـاب الميـاه والحبل يتهاوى يتمادى وبعبعة المياه وبكبكتها فيثقل فى يدها تشد وتشد الحبل يخرج إلينا فتتناثر مياه على جنبات المكان.

حكايتى مع الـدلو المطـاطى وأصـوات يحـدثها حشرجات ترنيمات فترد الصخور توشـوش ميـاه الثلـوج والمطر الذى ملأ أبيارنا وأغرقت قمم جبالنا فروت أشـجار البلوط والرمان، ما أجمل رائحة طوابينا المتوهج فيها أعواد حطب تفحمت حين تستعد حليمة تلم عجينهـا لتنـزل سـفح الجبل نقتفى الدخان المتسرب ما بين الأحراش.. وطقطقـات عيدان الحطب ثم ما تلبث تشدها تجلـس القرفصـاء تثنـى طرف ثوبها على أول ركبتها المنثنية أمـام الطـابون تشـد الأرغفة الساخنة وما أن تلامسها حتى تقلبها لتنزع حصوات

التصقت بالرغيف وتلقيها مرة ثانية فى الطابون تنظر إلـى مبتسمة وتناولنى رغيفاً.. رغيف من قمح أرضنا..

ونعود أدراجنا نصعد قمة " جبل الناموس " وبيـدى رغيف التقمه والسلة الممتلئة بخبز من يـد حليمـة تعتلـى رأسها..

تلاحقت الأصوات الجبلية..

هيه يا حليمة.. تلتفت وترد

- السلام عليكم يا خاله..
- من الصبية؟
- بنت خالى محمد

يرددن فى تعجب:

- أهذه بنت محمد عبد القادر

أقف قبالتهم يدققون النظر فى ملامح وجهى يسلمون ويقبلون وتعلو الابتسامات الوجوه..

وتقول المرأة

- العيون شرارية لقد عاد محمد وسيعود الخير معه.

استوقفتنى العجوز الجالسة علـى صـخور الجبـل أشارت لى أن اقترب.. تجلس تتسند على عصـاها.. قالـت لى:

- أتعرفين إننى قريبة أبيك.. أنـا العجـوز أم ياسر بلغيه سلامى وسيعرف حكاية ياسر الـذى قتـل فـى معركة القسطل..

أغرورقت عيناها بالدموع ولكن ما آثار اهتمامى أنها ترتدى " العراقية " مثل عمتى ولكنى أرى الجنيهات الذهبيـة مغلفة بقماش أسود خيطت عليها وأحكمت.. جنيهات عثملية مغلفة بالسواد..

مضيت مع حليمة والسؤال على لسانى:

- حليمة.. هذه الجدة.. لـم حاكـت بالقمـاش الأسود وحجبت الجنيهات الذهبية بها؟!

أجابتنى وهى تمد خطواتها:

- بفقدانها ابنها ياسر خبى بريق عينيها فجللت الذهب بالقماش الأسود مثلما يفعلن نساء فلسطين.

كان الليل رداءنا يلفنا يجمعنا فى مجلسنا فى البهـو الكبير تحت أنوار القناديل المدلاة من القباب بصوتها الـذى

يوشوش لنا ليصل إلى آذاننا دفئاً فتنطق السنتنا.. ويتحـاكى الرجال فى مجلس الرجال عما دار فى الجبال وكيف تمركز اليهود عليها..

- تعرف يا أبا ماجد.. لم نسمع طلقة رصاص واحدة..

أخليت المواقع لجيش الاحتلال.. لم يتكسـر زجـاج لنافذة.. ولم تهتز أركان البيوت لطائرات مغيره كما حدث فى غزه..

أجاب أبى بوجه متغضن:

- كانت مشارف غزة مقبرة لرجالها وقلب غزه الحزين مات نازفاً.. حتى من احتموا فى الخنـادق ردمـت عليهم فماتوا خنقاً..

- أما نحـن فـلا أعـرف إلا أن ا حمانـا وسلمنا.. إلا من بعض الشظايا المتطـايرة والقـذائف التـى مرت من فوقنا وأمامنا واستقرت على أسوار حديقتنا..

تنهض عمتى بقامتها الممشوقة تخاطب الرجال فـى مجلسهم حدثتنى جدتى زبيدة يا محمد واذكر جيداً أن النسـاء هنا من دير العسل ودير رازح عندما غزونا الرومـان كـن

يتقدمن الصفوف وينزعن أوتاد الخيام ويتصدروا المعـارك قبل أن يصل إليهم الرجال.

مع أحاديثنا.. أحاديث الحرب والبطولة تقطع خيوط الحسرة فى ضربات الكف بالكف عن احتلال حط فى بلادهم دون طلقة رصاص واحدة فى بلادهم التى ضمها الملك إلـى مملكته فى ضفة شرقية بعدما كانت تسمى صحراء فلسطين.. كان مجلس الرجال فى بهو دار عمتى تشتعل لها أعواد ثقاب تلهب وجوهنا وسط الرياح العاوية القادمة إلينا تحمل الصقيع الذى ينذر بهطول الثلوج من على قمم الجبال.. تتناثر نجماتنا فى بيوت اضاءها نور القنديل.. يفترش أرضها سجاد غُزلت خيوطه بمغزل جدتى وعمتى والفحم يتوهج فى موقد النار..

ولكن يظل اللغز دوماً فى المغر المنحوتة فى قلـب الجبال وحكايات عنها تثير أحاديثنا وعن فدائيين عاشوا فيها سنوات المقاومة تفتحت الآذان للأحاديـث المتسـحبة عـن الرجل المبروك الذى يقطن المغارة، تنبهنا:

- وأين هو الآن؟
- أنه داخلها يعيش فى العتمة فى سراديبها
- ابن من هذا الرجل المبروك؟

- ابن الحاجة غصون

كان الرجال يتحدثون عن هذا الرجل فى غموض..

يرد العم أبو فايز:

- اتعرف هو لا يشعر بالبرد عـارى الجسـد صيفاً شتاء

- أنا شاهدته يزحف بجسده إلى أن يصل فتحة المغارة ويظل يردد أسماء وينطق بعبارات وأصوات غريبة، ولا يحلو له الخروج إلا ساعة سقوط الثلوج فيخرج يلاقيهـا عارياً زاحفاً..

الجميع ينظرون إليه من خلف الشبابيك يترصـدون كلماته لأنها نذير.. الليلة ستسقط الثلوج لتطفئ حرارة قلوبنا ويهدأ غليان الأرض.. هذه ليلة ثلجية زارنا فيهـا القمـر.. القمر فيها كان حزيناً جاءنا الليلة كسيرا مكسـوراً فتـذكرت أمى كلمات الصغيرة من كسر القمر؟

السماء ساحة عرس ثلجية تسقط الحكايات الجميلـة إلى الأرض لتفج من ترابها وبين صخورها وفـى طينهـا.. صمودنا وصلابتنا..

الليلة.. ثلجية.. لقمر كسير ولكن الرجل لا زال فـى المغارة يلتحف جدرانها المعتمة ليسـرى فـى جسـده دفء كدفء قنديلنا.. ولا زالت ليلتنا ثلجية..

نور القمر الكسير يطل علـى فتحـة المغـارة بـدأ الصوت يجلجل فى الفضاء ويشد جسده ليتقدم فتحتها.. تشبث بالثلج المتراكم يلمه بأنامل كفيه ثم ينثره على رأسه فتتنـاثر ورودًا فى ليلة ثلجية أضاءها قمر كسير صوته بـدأ يشـق الريح العاوية يزيحها بعدها تدوى كلماته.. مات جمال.. مات جمال.. ويغرس أنامله فى الثلج ويمرغ جبينه فيـه ويرفـع هامته ويعيد كلماته فيرددها الصدى فيحملهـا تـدق علـى النوافذ.. على الأبواب الموصدة والعيون المترقبـة.. مـات جمال..

عدنا أدراجنا تحملنا طرقاتنا تفتح لنا كفها المسـتوية تطيرنا عبر المسافات نشهد الثلوج على الجبال ينحسر عنها ثوبها الأبيض فضفاضا تلقى به روافد تشـق الطريـق فـى ودياننا حيث تتعانق هناك فى مدينتنا التى دوماً حزينـة فـى وادى غزه.. عدنا وكلمات الرجل المبروك تحوم حولنا..

وأصابع عم محمود تفرص المذياع يفتش عن محطات الأخبار

ذبذبات.. ترددات.. إلا أن تلاقت المجموعة فى غناء صاحبنا على الطرقات.. ثوار.. ثوار لآخر مدى ثوار.. ثوار..

العود التاسع

ليل غزة الحزين

الضباب يغلف ذاكرتى.. يتبدد.. يتسـرب فتنجلـى صور تتابع.. تتسارع لأقف هناك أمام البوابة الكبيرة وأنظر كل يوم إلى اللافتة المثبتة عليها..

" مدرسة المأمونية للاجئات " الطريق إليهـا رملـى وعلى ربوة تلفها أشجار الكينيا التى نستظل بها..

زى مدرستنا أعرفه.. خطـوط طوليـة زرقـاء.. بيضاء.. دفاتر.. زرقاء.. إغاثة.. أمم متحدة..

يرن الجرس يحملنى إلى فصلى.. تزاحم.. أصوات.. كلمات مبعثرة.. ولكن اليوم كل شئ دار فى صمت.. أخـذنا مقاعدنا فى وحشة.. خوف.. توجس إلى أن دخلت مدرسـتنا ربيحه بوجـه متغضـن.. تعلقـت عيوننـا علـى شـفتيها المنغلقتين.. تعلقنا بكلمات من المجهول قد تأتى إلينا.. وقفت أمامنا بوجهها الحنطى وأهداب عيون محتنقة بدموع تحجرت فى مطارحها.. نظرتنا طأطأت رأسها فنامت أهدابها تمتمت لنا بشفاه مرتعشة.. مات جمال..

هوت على مقعدها ولمت رأسها بساعديها لتنفجر فى بكاء محموم تناثرت حممه على دفاترنـا.. أقلامنـا.. علـى أحلامنا.. كانت لحظة الغرق.. الجميع يغرقـون.. احتوتنـا

مقاعدنا لمت اشلاءنا.. وعدنا أدراجنا نفرد اجنحتنا تطيرنـا رياح حزن عصفت بقلوبنا.. ضمتنا وحشة الصمت.. أطبـق الحزن علينا وبأقدام متهاوية وقفت بعتبـة دارنـا.. بوابتنـا الحديدية مشرعة.. لم أدق على بابنا اليوم..

قادنى الصمت عبر ممر حديقتنا.. لا أشعر بـدبيب الحياة.. بدا العالم من حولى يتجمد.. دخلت بهو دارنـا.. لا أحد.. اخترت المطبخ طريقاً لأجد أمى.. إنها جالسـة علـى مقعدها وأمامها إناء غسيل يفيض برغاوى الصابون.. وقفت بالباب أنظرها أكوام الغسيل الملقاة بجانبها تفرد ساعديها فى إناء وتنتشل الملابس ثم تتركها تستنيم على يدها شاردة عنها شاخصة فى الفراغ حيناً وفى الإناء حيناً.. دموعها تتسـحب فى صمت عبر خدودها على ملابسها فـى إنـاء غسـيلها والمذياع فوق الرف الرخامى يبث الكلمات فينثـر الـدموع فيها..

تحشرجات فى حناجر الرجال.. ما أن يتوقف المذيع حتى يواصل زميله ثم مايلبث أن يعجز عن كلمات تاهت فى زحام حزننا.. لم تنتبه إلى وجودى.. خلع قلبى عليها زاغت عيناى أبحث عن أبى صعدت الطابق العلوى لأجده غارقـاً

فى صمته ينظر إلى الفراغ من شرفة دارنا.. لتقابله دوالـى العنب التى امتدت فوق الأسلاك المتشابكة كبسـاط أخضـر يلف جنبات البيت.. وطرقـات المطرقـة والسـندان يعلـو صوتها..

كان لجمال مكان هنا بيننا.. بصوته السـاحر كـان يغرس مع أبى دوالى العنب.. ويضرب بالمطرقة معـه يـد بيد..

بكلماته التى دوما تسابق الريح لتصل إلـى بياراتنـا إلى أحراشنا.. فوق قمم جبالنا.. كان أبـى يفـرد الأسـياخ الحديدية المعوجة لتتدافع عيدان الـدوالى تتشـابك الأوراق عليها.. وتتدلى قطوف العنب.. بكلماته.. اختار أبى طريـق الثورة فاقتلع من أرضه هناك من جبال الخليـل ليفـتح لـه صاحب الكلمات الخالدة ذراعيه:

"لن ننسى فلسطين أبداً"

خطابه فى قطاع غزه

١٩٥٥/٣/٢٠

بكلماته سافر شبابنا هناك يملؤهم الحماس يعبـرون القنال.. ويعودون أطباء.. محامين.. أزهريين مع جمال..

حملتنى الصور إلى القاهرة علـى كـوبرى قصـر النيل.. تحتضننى أمى بذراعيها وتهزنى بكلتا يديها انظـرى هذا موكب جمال.. تهزنى وتلوح بيدها.. انظرى إليـه هـا هو.. هناك..

لا أعرف من الذى تريدنى أمى أن انظره.. ولكـن لهفتها ولهاث أنفاسها جعلنى أومئ لها برأسى أننى رأيتـه.. حتى استراح قلبها.. هدأت أنفاسها ومر الموكب يشـق ليـل القاهرة التى كانت دوماً شرياناً يصل إلينا.. وتظل الصـور الحبيبة حبيسة فى كياننا الممزق يوم أغلقت حقائبى للعـودة إلى غزه وأنهيت دراستى كان هناك البوم معى لهذا الرجل.. من طفولته إلى آخر لحظات حياته.. يقـف مودعـاً لأميـر الكويت.. انهكته الرحلة والمشوار الطويل.. فمـال بقامتـه العملاقة متحاملاً يستند عليه مصـافحاً..مشـاهد.. مشـاهد تستوقفنى..

أسأل زميلتى فادية

- هذه هى انديرا غاندى تقف تستقبل الرئيس لمـاذا تبكى؟

تجيبنى

- أتعرفين أختى جميلة يوم تقابلت معـه فـى محطة رمسيس مع الطلبة القادمين من غزه قالت لى:

- إن العين لا تستطيع أن تطيل النظـر إلـى الرئيس.. وأن له بريقاً يشع من عينيه يأخـذك إلـى آمـاد بعيدة..

وهذه هى انديرا غاندى تعلن عن هذا ببكائهـا فـى حضوره.. وتعود الصور تدفعنى مرة أخـرى إلـى درانـا وقدماى تبتلعان درجات بيتنا لاعتلى سطحه.. وانظـر إلـى جموع تتدفق ويتدافع الناس من كل اتجاه لوداع هذا القائد فى جنازات رمزية وحشود الدبابات فى شـوارعنا ورشاشـات مصوبة إلينا وضحكات ماجنة.. نظرات ساخرة.. وكلمـات ينطقونها بعربية ركيكة من أفواههم..

- لقد مات حبيبكم

ويتواصل التدافع والزحام للوصول إلـى صـندوق خشبى يحمل فى جوانبه همومنا.. أحزاننا.. سـر نكبتنـا.. يحمل الحقيقة.. حملناه على أكفنا.. وظلـت صـورته حيـة تزاحم رموش عيوننا.. وكلمات لم تمت فـى وداع حبيـب الملايين..

غابت شمس القنال لم تعد تعكس بخيوطها الذهبيـة صفحة مياهها الرقراقة وعاد إلينا القمر يطل على مـدينتنا.. يضئ ليل غزه الحزين.

العود العاشر

حبات السودانى

قطع ممر الحديقة بخطواته الممتدة واقفاً فى منتصف بهو الدار.. يحمل كيساً بلاستيكياً.. نظراته تائهة تلف الحوائط تعتلى السقف ثم تنطلق إلى الأفق فى الفضاء..

سألنا:

- أين أمكم؟

رددنا بصوت واحد

- سافرت مع أبى إلى الخليل

- هذا يعنى أنكم وحيدات هذه الليلة.. الجيش يملأ الطرقات والعربات مصطفة إلى آخر الطريق تقف وراء الحواجز المغلقة أمامهم وقد تطول ساعات انتظارهم ليوم غد..

رفع الكيس البلاستيكى وأفرغه على الطاولة فتساقطت حبات السودانى متكومة أمامنا فلم بيده بعضاً منها واضعاً إياها فى حنايا أكفنا الصغيرة نظر إلى وجوهنا يتأمل ملامحنا مخاطباً إيانا

- فلتأكلوا. قشروا وتسلوا معى حتى يمضى بنا الوقت.. فتناموا وأبقى أحرسكم من عيون الليل لحين عودة أختى شريفة..

اتجه نحو الأريكة المقابلة يجلس عليها فالتففنا حولـه وصوت قشر السودانى يتناغم مع حركة أفواهنا..

كان ينظرنا.. يحنو إلينا ونحن ننظره.. ننظـر إلـى عينيه بلون شطآننا..إلى لمسات كفه الحنونة ويهتف هـاتف داخلنا أنه هو.. الخال كاظم.. خالنا..

العود الحادى عشر

زيـــارة

هناك فى آخر رف من رفوف الخزانة ما يخصنى.. ومع كل يوم أتعجل الخطى لأصل إليه أنبطح أرضا لأفـتح دفتى الخزانة الصغيرتين وبيدى أوراق الخس أمد يدى فـى ظلام دامس أترك أوراقا خضراء يستشعر أناملى تتقافز فـى مخدعه المحاط بالظلمة وألم جسدى الصغير وادقـق النظـر أكثر لتقابل عيناه عينى.. ولكن لابد من مد يدى مرة أخـرى لأقترب من جسده اتحسس فيه مواضع تستثيرنى..

بدأت حركة الأنامل المتسحبة نحوه.. حواف تقابلنى نواجذ تنغز أناملى.. ولكنى أريد أن أقربـه منـى أكثـر.. تلاحقت وخزات الأبر هربت يدى من ظلام أفزعها.. عـلا صوت أمى..

- غداً عندما تعودين من المدرسة لن تجـدى هذا القنفذ هنا.. سألقيه خارجاً..

لذت فى صمتى.. وعبست ملامح وجهـى واقفلـت دفتى الخزانة.. بدت خطواتى ثقيلة.. ترزخ بهمـوم الغـد.. تذكرت أن الغد سيكون أول أيام العيد.. فهدأت نفسـى.. لأن أمى ستنشغل عنـى وعـن قنفـذى بتحضـير حاجياتنـا.. واستعدادات البيت لاستقبال الضيوف..

فى ليل عيدنا لا ينام القمـر.. ولا تنـام عيوننـا.. فأحلامنا باتت فى حشو وسائدنا.. تنتظر الغد لتنـتفض مـع هدايانا.. وحاجياتنا التى أتى بها أبى.. تفترش النضد الكبيـر فى البهو على الأطباق الفضية نثرت بيـد أمـى.. حبـات الملبس.. والفستق.. والحلقوم بعين الجمل وملـبن وأسـدلت ستائرنا لتلاف حكاياتنا القادمة إلينا..

أحلامنا تتعملق فى كياننا الصغير الرابض المنتظـر لحظة يمد أبى يده فى جيبه يضم الأوراق النقديـة.. لتولـد لحظة الفرح فى العيدية..

فى أيام أعيادنا لا تفارق البسمة الودودة وجه أبـى.. ولكنه اليوم يتحرك فى كل اتجاه يجهز حاجات يطلبها مـن أمى وهى تسعى من غرفة إلى غرفة.. ثم ما تلبث تقول له: الشيخ " محمد عواد " فى الطريق إليك كان أبى مشغولاً عنا وأجسادنا الغادية تصطدم به بين الحين والحين فيحاذينا برفق وحنو ليكمل غايته.. يرتدى بزته وربطة عنقـه وصـديرى المح دوما أزراره المصطفة بطريق طولى مع جيب جـانبى دائماً يضع فيه قطع نقود فضية ما أن نراه حتى تمتد الأيدى نحوه.. يمد يده فى الجيب الداخلى ليخرج لنـا مـا يفـرح

قلوبنا.. الشيخ محمد عواد بالباب المح عمامته البيضاء التى لفت بعناية على طربوش أحمر يظهر بالكاد من الحـواف.. وعباءته السوداء التى تلم جلبابه الفضفاض.. أبى يسرع إليه عبر ممر الحديقة يتسابق مع الوقت.. واتجهت الأنظار إلـى أمى

- أيتركنا أبى أول أيام العيد.. وإلى أين؟!!
- ذهب لزيارة أخوانكم المعتقلين..
- ولكن السيارة القادمة بالشيخ هى للمسافرين
- نعم سيسافر إلى سجن فى مدينة بئر سبع

لاحقتنا أمنا بكلمات تـزيح الخـوف والقلـق عـن نفوسنا..

- آخر نهار هذا اليوم ستعود به السيارة إلى هنا

أخذ أبى مكانه بجوار الشيخ فربت على ساقه وقال:

- توكلنا على ا

تحسس أبى أوراقاً فى جيب سترته أخرجهـا يعيـد قراءة واختام الموافقة على الزيارة ثم نظر للشيخ..

- لأول مرة يصمم الحاكم العسكرى أن يرسلنا إلى هذا السجن للزيارة فلم تطأه أقدامى قبل ذلك ولكن أنا لم أمانع فالجميع أبناء لنا..

- هل مجاميع الحلوى جاهزة معنا؟

أجابه الشيخ:

- مررت على محل الحلويات وكـان الرجـل جاهزاً بها ولا تتصور فرحته عندما علم بأن هـذه الحلـوى ستذهب للمعتقلين فى أول أيام العيد.. وأمام إصراره بعـدم أخذ ثمن الحاجيات أوقعت اليمين فانصاع لى وأخذ نصيبه..

السيارة تندفع عبر الطرقات لتفتح لها مشارف بئـر سبع ذراعيها.. مع هبات نسمات ثقيلة.. كان كلاهما يـثخن النفس فتلتهب حماساً للقاء أبطال سطروا تـاريخهم.. ولكـن حوائط السجان أبت إلا فى إبقائهم لثنيهم.. تركيعهم.. فحالت حوائط وقواطع حديدية وحواجز بينهم وبين سطور بيضـاء نحتوا لها مراقد تشع وتزهو لتظل أبدية..

من البعد لاحت اللفائف السلكية الحلزونيـة تحـيط بالبناء كوحش يغرس أظافره فى رمال صحرائنا.. وما يكاد يغوص بها حتى تنتفض فيتزلـزل كيانـه مـن أعماقهـا..

وحراس المكان عازمون عن الخوض فيها ولكنها تنطق فى هبوبها رياحاً ترابية تهب عليهم تعمى عيونهم ما أن اقتربت السيارة حتى لاحت كاميرات التصوير وصـوت إشـارات اللاسلكى.. نظر المجند داخل السيارة فـأبرز أبـى ورقـة السماح بالزيارة ففتحت البوابات الكهربائية وغابوا فى أحشاء المكان..

وقف الضابط ينظرهم من خلـف زجـاج مكتبـه.. يحتسى الشاى بالحليب.. وتتصاعد أبخرة الدخان فى عينيـه ينظر إلى السيد القادم إليه بصحبة الشيخ بعمامته البيضـاء.. وأشياء ينزلونها يحملونها للداخل تحت حراسة جنوده.. رفع أبى رأسه يسأل أين القائد.. لنبدأ الزيارة أشـار إليـه بـأن يتبعه.. خرج إليه القائد.. صافحه بكلمات العربية الركيكة كل عيد وأنتم بخير.. تفضلوا من هذه الردهة.. وغـاب عـنهم داخل مكتبه.. وأبى والشيخ يغوصان فى ممـرات ودهـاليز وصفق أبواب حديدية.. وصمت فى جحـر الأفـاعى يبـث فحيحاً فيزلزل الكيانات كلها..

تمتم للشيخ:

- أنا قلق لهذه الزيارة إلى أين نحن ذاهبان

توقفت خطوات المجند والتف إليهما..

- يا شيخ ابق هنا وليكمل السيد طريقه معى..

توقف الشيخ فى مكانه يحوطه الارتباك وأكمل أبـى طريقه داخل الدهاليز والممرات وتعمد أن يسمع وقع أقدامـه تدب فى الأرض ثقيلة.. إلى أن قابلته بوابة حديدية.. رفعت بطريقة إلكترونية وما أن تخطى عتبة الباب حتـى صـكت عليه..

نخرت أنفه رائحة العفن المتبخرة من جميع الزوايـا من مكان لم ير الشمس من سنين أرض متحفرة داكنة.. فـى أحد أركانه ثغرة أتخذت شكل مرحاض.. جـدران متآكلـة حفرت عليها كتابات مائلة.. نقـوش.. علامـات أظـافر.. بصقات دم.. كتابات متشابكة.. متفرقة.. ضاعت معالمهـا.. لن نركع.. لن نفرط.. لن نخون..ووجـوه تنظـر صـاغية لطرق خطوات ضائعة.. همهمات غامضة عميقـة.. كأنهـا آتية من عالم الغيب لريح آتية إليهم تسربت إليهم ثم راحـت تفتش لنفسها عن مخرج.. كان للشمس شعاع يتسرب إلـيهم فتنحدر خطوطاً تعلم على قسـمات وجـوههم المتغضـنة.. فيستسلمون لها..

- السلام عليكم

ساد صمت

والعيون كل العيون لا زالت منغرسة فى حدقة عينيه لشفاه تجلدت وأظافر تشبثت.. نتوءات وجـوههم صـخرية حادة الزوايا.. وقف قبالتهم دافعاً صدره إلى الأمام بحنجـرة متقدة وكلمات تحطم الحواجز تزيح غبار السنين العالقة على ذقونهم الكثة..

- قفوا يا رجال.. ارفعوا هامتكم تنفسوا مـلء صدوركم.. وامسكوا بخيوط الشمس الآتية إليكم فلن تغيـب شمسكم فهى هناك تحرس الرجـال علـى القنـال- عبـر المصريون القنال.. افيقوا.. استعيدوا أنفاسكم الهاربـة مـن صدوركم..

دوت كلماته فبعثرت البقايا الباقية فهب الرجال مـن يأسهم أطبقت دهاليز السراديب على صرخات الرجـال.. ا أكبر.. ا أكبر..

التفوا حوله تعانقت الأكف أدخل يده فى جيب سترته وأخرج الجريدة " جريدة القدس " تتخاطفهـا الأيـدى تقفـز العيون على كلمات سطرت عليها.. انهيار خط برليف تعلـو

الحناجر بالهتاف صوت الإنذار.. يرتفـع البـاب الحديـدى ليخرج إليهم إلى مكتب القائد.. وقف قبالته أمسك بالجريـدة وألقى بها على مكتبه فانزلقت على زجاجه اللامـع لتسـتقر تحت مسقط عينيه وبلغة عربية ومداد أسود " القدس "

عبور القوات المصرية القنال..

انهيار الأسطورة..

غادر مكتبه وسط حلقات دخان تجوب أركان الغرفة تنفذ عبر فتحات النوافذ حائمة.. حائرة.. مهزومة..

كل ما جرى وما كان قصه أبى علينا أتخايل القنفـذ فى ركنه المظلم.. ولكن لن أبقيه حبيساً هنـا فـى خزانتـى مضيت إليه فتحت دفتى الخزانة.. مددت يدى أتحسس مكانه وخز فى أناملى ولكنى ضممته فى حنايا كفـى.. اسـتقامت أشواكه حراباً ففتحت ثقوباً فى كفى سالت دماء.. لـم أهـب الدم النازف على حواف أشواكه ضممته وأودعتـه الأرض يبحث يفتش عن أوراق خس خضراء قد أجده يومـا ولكنـه سيبقى على الأرض..

غداً ستجد أمى دفتى الخزانة مفتوحتين ونور يمـلأ جوانب خزانتى.. وهواء يدور فى أرجاء مكان أظلمته فـى يوم ما..

العود الثانى عشر

فى دارنا.. كان.. مكان البطل

شدت واحدة من الوسائد المتكومة فى زاوية الأريكة تضعها تحت رأسها تستلقى تفرد ساقيها على الوسائد..

أجلس أقابلها أتأمل قسمات وجهها الفلسطينية.. أشتم رحيق أزهار نثرت بذورها فى طين الوادى.. نسمات تحاكى أوراق الدوالى المتعربشة على نوافذها.. أزفر بأنفاس وأرجع بظهرى إلى آخر الأريكة

- كيف زرعت الدوالى هنا..

- لو قلت لك لن تصدقى.. عبد القادر آتى بها من أرض البستان من " دورا " من على جبال الخليل أخذت عقلة الدوالى وزرعتها هنا فى طـين وادى النيـل فنبتـت الجذور فى أصيص طينه وبعد ذلك نقلتها إلى الأرض لتلف حوائط بيتى.. هذه الدالية شبت على الحوائط وارتفعت إلـى الطابق الثالث..

انتقلت من أريكتى وانحنيت نحو النافذة مددت يـدى أشد أوراق الدوالى أتحسس تعرجات عروقها وأمر يدى على حواف أوراقها.. ثم التفت إليها وقلت لها:

- احكى لى عن ثمارها

بدأت عيناها تحكى لى وتلقى لى بصـور القطـوف الجميلة وحجم حبات العنب الخضـراء مـذاقها وانسـيابها وتلاصقها.. توقفت قليلا وحامت بنظراتهـا حـول النوافـذ المشرعة التى تطل من كل زواياها فروع وأوراق تنـتفض مع نسمات الهواء الغادية..

عدت إلى أريكتى وأنا أتأمل كف يـدها الطـرى.. وصورة تعتلى الحائط من خلفها.. صورة مطلة عليها ولكن لا تزال عينى معلقة ما بين الصورة وبينها.. ماجد.. وكوفية مرقطة لفت على إطار الصورة..

قطعت الصمت

- أتعلمين أن ماجد كتب قصة " مكان البطل " وأهداها إلى روح الشهيد " إبراهيم أبو دية " وفى الموسوعة الفلسطينية تصفحتها كتب فيها " صبحى طوقان " من حـرف الألف عن " إبراهيم أبو دية " لقبه بأشجع الثوار..

شَخصت فى الفراغ واستعدلت جلستها المرتخية على الأريكة وكأنها تلم خيوط الماضى من سراديبها لتلفها فى شلة الصوف وتلقى بها إليه.. خيوط.. خيوط..

- مع خيوط الفجر.. أتى إلى دارنا إبراهيم..

- دارنا أين؟!

- دارنا فى " دورا "

كان أبى يعرف طرقاته المميزة بالباب وفى فجر ذاك اليوم لم أنس الرزم الورقية التى تكومت على نضـد بيتنـا ودهشة قفزت من عين أبى.

- ما هذا يا إبراهيم؟!

- بعت أرضى كلها للحاج أبـو سـليم بعـت الأرض يا أبا ماجد لتأت بالسلاح

قاطعتها

- باع أرضه كلها؟!

- نعم إبراهيم أبو دية باع أرضه ليشترى السلاح

ودعه أبى على البوابة متجهاً إلى مصر ليعقد الصفقة ويأتى بالسلاح والذخيرة عبر الصحارى والقفار ليقـف فـى المواجهة ضد الانجليز والعصابات اليهودية.

تسرب الخبر إلى الإنجليز فألقـت بمئـات الجنـود لحصارنا.. وداهمت بيت إبراهيم.. خرجت زوجته " معزوزة " بين جموع الجيش منتفخة الجسد لفت على جسدها البـارود والسلاح ومضت أمامهم بخطى متئدة واثقة مرفوعة الـرأس

تمضى بأحمالها تحمل عبق الأرض الذى ضمخ جسدها بقطع السلاح

انحبست أنفاسى لهول ما أسمع منها..

بدأ اسم إبراهيم أبودية يتعمق فى نقوش تزداد بريقـاً مع حديثها تنهدت ونامت أهدابها..

- أين هم الآن.. لقد ضاع كل شئ

قطعت نبرة الحزن فى صوتها..

- هل لك أن تصفى لى شكل إبراهيم..

- لم يكن فارع الطول.. كان ربعـى خفيـف الحركة نشيط من قلب الليل يأتى إلينا.. مرات يأتى بمفـرده يجتمع بأبى ينزويان فى غرفة الضيوف ومرات يأت بالرجال ومرة وصل العدد لعشرين رجلاً وكان الأمـر يسـتدعى أن يناموا فى دارنا دخل أبى حجرة نوم أمى.. وشوشها همـس إليها.. فاستدارت تفتش عن شالها الأبيض المطرز تلقيه على رأسها وأخذتنا إلى بيت جدى فى هذه الليلة..

- كان الرجال كثيرون والأنفاس محمومة لقتال الغد فى معركة صوريف..

- كان إبراهيم يتقدم الصفوف يلقى بقلبه فـى الوديان على السفوح يقتلهم خوفاً وريبة قبل أن يتقاتل معهـم ولا يعود من المعركة إلا وبه إصـابات رصـاص إختـرق جسده.. يتحامل إلى أن يصل إلينا.

- إلى أين

- إلى دارنا

- دارنا!

- نعم كانت جدتى " زبيـدة " تسـتقبله تـريح جسده على الأريكة وترفع أجزاءه المصابة بالوسائد الطريـة تتعامل مع الجروح بالماء الدافئ والضمادات كـان جسـده منثوراً بالرصاص.. لم تتبق فيـه مسـاحة إلا واخترقتهـا رصاصة.. وساعده يردها بقنابل تحرقهم.. تمـزقهم.. يـوم نزل سفح الوادى انقض عليهم كالصـقر.. لـم يبـق مـنهم واحداً.. اهتز الإنجليز فى مواقعهم جابوا الجبال يفتشون عن إبراهيم..

وقف القائد على قمة الجبل..

- يا أهل صوريف خمسين رجلاً من اليهـود ذبحوا الليلة الماضية وهم أشلاء مترامية فـى قـاع الـواد فلتنتشلهم إيديكم مثلما فعلتم..

- كان هذا العقـاب الـذى أوقعـه الضـابط الإنجليزى على أهل " دورا " ومنطقة صوريف.. لـم يهـدأ إبراهيم وظل فى قلب المعـارك بـين " الدهيشـة " إلـى " صوريف ".. ثم القسطل

حدثتها مخاطبة:

- يسرى.. وما سر العلاقة ما بين أبى وإبراهيم؟

- كان أبى قائد فى جهاز اللاسلكى يلتقط الإشـارات ويفك رموز الشفرات ما بين الإنجليز واليهـود.. فيعـرف موعد الهجوم علينا فيقطع عليهم الطـرق برجـال إبـراهيم وعتادهم

- ولكن ظلت حكايات البطولات تسرى رغـم كـل العوائق والتآمرات علينا من الملك والإنجليز وأطماع اليهود فى معركة " كفار عصيون " كسرت شوكتهم بدبابة واحـدة كانت بحوزة الرجال ورجال الملك كسروا الأوامر وخاضوا بها المعركة بعيداً عن عيونه بسواعد الرجال الحرة..

- ولكن حدث مالا أقدر على نسيانه يوم دخـل علينا إبراهيم يحمل مدفعاً عملاقاً يسمى " برن "

- مدفع!! نعم

تلعثمت فى كلماتى

- وما شكل هذا المدفع؟!

- أخذ طوله بهو دارنا..

- ولم آتى إبراهيم به إليكم؟

- إبراهيم أبو دية يوم جلب السـلاح احـتفظ بالمدفع ليوم يشتد فيه رحى القتال فحفر له فى الأرض وهال عليه التراب دفعته الحاجة إليه نبش الأرض وأخرجه.. فهلع وجزع عندما غطى الصدأ جوانبه.. حمله مع الرجال إلينا..

- نادى أبى وطلـب إحضـار وعـاء كبيـر للكيروسين وشمرت السواعد وبدأنا نجلى الصدأ الذى اعتلى دانة المدفع وحبات العرق تتفصد من علـى الجبـاه تأخـذ طريقها فتسيل على جنباته فتلم الصدأ تزيحه فيتوهج لونـه.. فى وهج فرح ليوم لقاء يتوق الرجال إليه..

- وهل شاركت فى إزالة الصدأ؟

- نعم كانت يدى بيد الرجال وبين الحين والحين أخرج انظر النافذة والطريق الذى قد يحمل إلينا الإنجليز..

- فوجود هذا المدفع كان عقوبته الإعدام..

كانت سادرة فى حديثها وعيونها تنطق بالحقيقة القابعة فى زوايا الذاكرة البعيدة أفاقت وتنبهت..

- أصيب إبراهيم إصابات بالغة أدت إلى إصابته بشلل

- ولكن هل تعلمين يا أختاه أين توفى؟

- أنا قرأت فى الموسوعة أنه سافر للعلاج واسلم الروح فى بيروت وعاد صبحى طوقان يؤكد بأن حروف اسمه من نور فى سجل الخالدين..

وعادت عيناى تتسلقان الحائط والصورة المعلقة عليها.. ماجد.. الساكن فى صمته الشاهد على حوارنا..

- وماجد أين كان فى خضم هذه الأحداث؟

- ماجد كان يعمل فى التدريس فى قرية مجاورة..

ورحلت بناظريها تعتلى سقف الغرفة وترتد مرة أخرى إلى الأريكة.. وتتمتم بكلماتها..

- كنت معه.. رافقته.. وعملنا معاً فى التدريس فى مدرسة " رفح الثانوية ".. كان يقلنا الباص نذهب ونعـود سوياً..

تنهدت.. زفرت.. فجادت العـين بدمعـة.. دمعـة فراق.. دمعة عهد.. دمعة شوق للقاء حبيب طالت غيبته.

العود الثالث عشر

حبات القهوة

ما بين أوراق أشجارنا يعبر جسدى النحيـل تطـالع وجهى أغصان متدلية بحبات البرتقال حين تلمع فى وجهـه الشمس الآفلة تلمع لها معانقة لعهد ووعد أن ينـام برتقـال حديقتنا فى حضن القمر يتندى له تسقط حبات نـداه دموعـاً تستقبل شعاع الشمس فتمسح دمعاتنـا مـن عيـون حبـات البرتقال..

" أم طلال " لا زالت كعادتها تجلس تحـت شـجرة البرقوق بلون العناب.. تجلس على كرسى خشبى واطـئ.. تلف تدور مع مقبض المطحنة النحاسية تضم فى راحة يدها حبات البن المحمصة تلقى بها فى فوهتها.. تغلقهـا وتحكـم غلقها لتعود تلف.. تدور.. اسمع طقطقاتها المخنوقة داخـل جسمها النحاسى اللامع.. تتكسر تتفتت بيدها التى لا زالـت ممسكة على المقبض تلفها بعزم وإصرار والصـوت ذائـب فيها.. تلف فيخف المقـبض فـى راحتهـا.. تلـف يـذوب الصوت.. وتبقى الذكريات الساكنة فى بصيص عينيهـا.. لا تستفيق منها إلا على سكون يحوطها ويد تلف الفراغ فتتنبـه أن حبات البن طحنت فى الجسم النحاسى.. ليـزداد وهجـه المعانق لخيوط الشمس المتسحبة ما بين أوراق الشجر..

أجلس على سور حديقتنا أنظرها.. أنظر المطحنـة النحاسية.. أحدق وأدقق من البعد وكلمات أمى تلاحق أذنى.. إنها مطحنتى أنا.. طلبتها منى أم سـهيل.. وبعـد ذلـك أم إبراهيم.. وأنا أذكر جيداً أن أم طلال هى آخر مـن طلبهـا منى..

- نعم.. ولكن يا أمى من الجائز أن تكون هذه شبيهة لمطحنتك

ترد بانفعال ظاهر

- لا أنها هى أنا لن أتوه عن مطحنتـى أبـداً جئت بها من القاهرة ونقش فى آخرها اسم "نعمة" نعـم أنـا متيقنة من ذلك وهى لم تحاول أن تعيدها لى..

.. وأحدث نفسى بأن سيأتى يوم قريب وأسـتعيرها منها لأجل النظر فى كلمة منتوش أسفلها "نعمة"

ولا زالت الشمس تعكس وهجها على سطح المطحنة النحاسية ولا زالت يدها تلف.. وتدور واستفيق على صـوت أمى العابر إلى أذنى عبر ممرات الحديقة.. أتحرك من على حافة السور أذهب إليها دون رغبة منى أن أحكى لهـا عـن

مطحنتها التى تخايلها بها جارتنا بين الحين والحين وأجـدد حزنها عليها.

العود الرابع عشر

نسمات قدسية

من فوق جبال مؤاب انحدرنا فى رحلـة مدرسـية ولممنا فى راحة أيدينا حصوات تعانق بحرنا الميت.. خلعنـا ملابسنا وطفونا.. فحملتنا مياهه لتعانق نسمات قدسية تصافح صفحة مياه البحر الميت.. ارتـدينا ملابسـنا وقفلنـا لخـط عودتنا..

أمرر إصبعى على ساعدى وأتذوق بطرف لسـانى ملح أرضنا.. ملح بحرنا.. ألمـس شـعرى فأجـده اسـتقام كأعواد.. حملت أملاح الأرض إلى غـزه.. دخلـت الـدار طالعنى أبى برموشى التى بدت بيضاء وشعرى ولون جلدى الذى غطت الأملاح ما ظهر منه..

وقف ينظرنى

- ما هذا؟

رددت بخطوات خفيفة أخطوها أمامه

- جئتك يا أبى بملح الأرض ومائها ولم أغسل جسدى ظللت كما ترانى هكذا.. مملحة..

نظرنى أبى نظرة حزينة تكسرت على رموشى التى تتساقط منها حبات الملح الناعمة تتنهد قائلاً:

- أحكى لى ما رأيت هناك

- أنا لم أر شيئاً أنا تنفست ملء رئتـى عبـق الأرض وشممت هواء قدسياً..

وقف ينظرنى وتناول الجريدة ومضى..

العود الخامس عشر

أنا فاطمة.. أنا حورية

دار الهمس فى بيتنا يطوف بـأمى ليعـود يطـوق جدتى.. جدتى غارقة فى حيرتها.. ألهو مع أخوتى وأعـود ثانية لمجلسهما وأمى تكاد تلتصق بها تملى عليهـا بكلمـات فتعيد جدتى تكرارها.. ثم ما تلبث أمى أن يصيبها الضـجر فيعلو صوتها..

رددى ورائى:

- عندما تقفين عند حـاجز التفتـيش سـيكون وجهك مغطى وسيسألك المجند من خلاف زجاج السيارة مـا اسمك؟ تقولين أنا فاطمة عبد القادر.. اعيـدى الاسـم مـرة أخرى..

ترتعش الكلمات ما بين الشفاه تتمتم جدتى..

- أنا فاطمة عبد القادر

إنه اسم عمتى فما الذى يدور اليوم

- أمى إلى أين ستمضى جدتى؟!

- لا وقت لدينا جدتك ستسافر للبحث عن أخى كاظم طالت غيبته ولم يعد مع العائدين بعد انتهـاء الحـرب وامرأة خالك تطلب حضوره كـل يـوم ليكـون بجوارهـا

ويحضر يوم ولادتها.. ولكن جدتى حورية قد تنطق باسـمها وتنسى اسم عمتى فاطمة

- أنا أحاول معها وستنام عندنا الليـل بطولـه لتحفظ جيداً أنها فاطمة عبد القادر..

امضينا ليلتنا نلتف حولها واسم فاطمة يتقـافز فـى ذاكرتها ثم ما لبث يغيب عنها فتبدأ فى البحث مرة أخرى..

تبدأ حورية فى البحث عن فاطمة من جديد.. بقلـب أمى الذى اعتصره القلق والخوف على أمها التـى ستسـافر حاملة جواز سفر مرور يخص عمتى بعدما فقدت هويتها من أيام الهجرة.. والعودة بابنها كاظم لزوجته فايزة التى ما كفت تسأل كل يوم متى يعود وقلق يكبر بداخلها ألا تـراه مـرة أخرى..

هذه الليلة غير باقى الليالى التى كنا فيهـا نتسـحب رويداً لنأخذ ملابس جدتى.. ثوبها.. غطاء رأسـها حـذاءها ونخفيها.. ووقت تهم بالعودة إلى دراها تفتش عن حاجياتهـا وتبدأ تهز أجسادنا الصغيرة المتعبة فى نومنا عسانا ندلها عن طريق تجد أشياءها دون جدوى فتجلس تتوعد لنـا وتقسـم لأمى بأن لا تعود إلينا مرة أخـرى.. وليلـة مـن لياليهـا

كحكايات ألف ليلة " طاهر أبو فاشا " .. بلغنى أيهـا الملـك السعيد ذو الرأى الرشيد.. دفء كلمات عبر الأثيـر كانـت تدغدغ مشاعرنا ونحن نلتف حول جدتى لنسمع باقى الحكاية إلى أن يصيح الديك فتسمع التنهدات على ما فات ومـا هـو آت.. فى حيرة تتركنا الحكاية نغرق فيها واستفيق اليوم على جدتى التى تشد الرحال وتفقد اسمها كأشياء كثيرة فقـدناها.. واليوم تطالبها أمى أن تنسى حورية وتكون فاطمـة لأجـل السفر والعودة بأخيها كاظم ويحنو صوت جدتى بكلمات قلقة تحدث أمى:

- لا تخافى يا شريفة فا لن ينسانى يا بنيتـى وسيقوى من عزيمتى أمامهم ولن أنطق بحوريـة وسـأخفى وجهى بغطاء رأسى

ترد عليها أمى:

- لو تجاسر الجندى عليك أدعى قلـة السـمع لتعطى نفسك الفرصة فى التذكر لو نسـيتى.. لـو نسـيتى تذكرى فاطمة ابنة الرسول صلى ا عليه وسلم.. عبد القادر عبد ا يا أمى، عبد لمن يقدر والقادر هو ا ..

ومع كلمات أمى تتسع حدقة عينها لتحتوى كلماتهـا وتكون أمامها فى صورة ترسمها لها أمى..

سافر ليل مدينتنا يحمل جدتى مسافرة إلى بلاد يضئ فيها القمر فينحسـر الغمـام لتسـافر الأصـوات وتقتـرب المسافات.. لأم مسافرة تفتش عن ولد لها وتعـود بـه مـع العائدين..

العود السادس عشر

حارة الفواخير

كثر السؤال مع جموع العائدين الزائرين.. المبعدين من على المنافذ والجسور لكل عائد تستعد أمى للزيارة لتسأل عن أمها التى مضت ولم يأت من عندها المرسال..

وترجع إلينا تجرجر بقايا أمـل لأيـام قادمـة مـع العائدين.. وأتت إلينا فايزة امرأة خالى بالجميلة " ابتسام "..

امتد الطريق ما بين بيتنا من على التلال الرملية إلى بيت جدتى تسوقنا أقدامنا إلى هناك يحملنا الطريق الترابـى من شارع " قرقش " الطويل ماراً بحى الفواخير.. وسـاعة الرجوع فى عصر أيامنا الجميلة تتلقفنا يد الخال سعيد يضعنا على دراجته التى كانت تسعنا بالعلبة الكرتونية المثبتة عليها يضعنا فيها ونتبادل الجلوس ما بيننا يشـق الرمـال فيتـرك وراءه خطاً فاصلاً غائراً ننظر إليه ونمنى النفس بأن نعـود يوماً لبيت جدتى ونمشى وراء الخط المحفور فـى الرمـال فنصل إليها دون دليل يدلنا.. ظل الدفء يغمرنا بـين بيتنـا وبيتها فترعرعت أعواد صبانا وحفظنا طرقات مدينتنا.. ننام نحلم بالطريق إلى بيتها وتشق الجفون على حاجيات نحملهـا معنا فى السلال إلى امرأة الخال.. " فايزة " يـدب الشـجار بيننا من يحمل هذا ومن يحمل هذه تتسـابق إليهـا لنفـوز

بابتسامتها الرضية وقبلة تطبعها على وجناتنا، تضج أمى بنا فتتركنا نوزع بيننا الأدوار إلى أن نجتاز عتبة دارنـا لتبـدأ رحلة الشارع الطويل.. من أعلى التلال ننحدر لتظهـر لنـا بيارات البرتقال كبساط ريح نسرع إليه نمتطيه وندور معـه على نغمات صوت الطرمبات ونقيق الضفادع فـى حضـن بياراتنا كانت هى الدليل لخط سيرنا تقودنا فنمد أيدينا نقتفـى أثر الصدى تأخذنا خطواتنا الممتدة إلى صانع الفخار الجالس فى العتمة بجسده الذى اتحد بطين الأرض فلا أبصر منه إلا خيالات تخرج من فوهة لمصباح علاء الدين السحرى يلـف الفخار يدور ويدور وأصابع يده غارقـة فيـه تلامـس ولا تلامس يغرق فى طينها وتغرق فيه.. تلف الأرض لنا وتلقينا على طين وصلصال فى غزة.. غزة هاشم وصوت المدرسة يرن فى آذاننا " تشتهر مدينتنا بصناعة الفخار " وهـا هـو صانع الفخار أمامى أنظره ولا ينظرنا غابت قسمات وجهـه فى العتمة وبرزت نتوءات عظمية تلتقط من الطين ويصـنع بعناية أوانى فخارية.. مزهريات تنتظر عيون الشمس لتتوهج فيزداد تيبسها.. تزداد صلابتها.. لطين يخرج مـن الأرض

يحاكينا فى حارة الفواخير الطريق إلى بيت خلا مـن نـور جدتى.

العود الثامن عشر

من كسر القمر

نتنفس الصعداء.. تلمع عيوننا.. تبتهج نفوسنا عندما ينحنى آخر الشارع الطويل فنميل معه فرحين مهللين ويبـدأ سباقنا للوصول إلى البوابة.. تتزاحم أيدينا لتطول المقـبض النحاسى يرن فى آذاننا نغمات فرح تطرب لها قلوبنـا مـع إطلالة امرأة خالى تفتح ذراعيها لنا تلمنا فى دفء أنفاسـها إلى تينة تتوسط فناء الدار تفرد الحصير تحت ظلالها ونجلس نمد أقدامنا تارة وتارة نتربع عليها شاخصين إليهـا.. إلـى هيفاء القد التى تسحرنا بمشيتها وخفة حركتها وهـى ترفـع السلال وتفرغ ما فيها كنسمة غادية بنغمة صـوت شـجية.. تحدثنا وتسألنا عن حالنا وحال أمى من يوم غياب جـدتى.. بقميصها الأبيض القطنى دوما أذكرها وزنار على تنورة يلم خصرها بشعرها الأسود الليلى المستنيم على كتفيها يحـاكى صدرها .. تلتف غرفة الدار حول شجرة التين التى تتوسـط الفناء الكبير..

فى غرفة امرأة الخال سرير وخزانة تمتد كف يـدها الطرى تفتح خزانة فتخطف عيوننا لمـا صـنعت يـداها.. عطورها منزوية حزينة.. ملابسها متراصـة متـآزرة فـى تنسيق ينبض برقة منمقة.. تنسدل من على حواف الرفـوف

مفارش بيضاء حيكـت بخيـوط بيضـاء.. وورود وأوراق لشجرة الصفصاف مطرزة على أكياس الوسائد فتأنس لها فى سهاد ليلها الذى لم يكف الانتظار، تلم جسدها فى عتمته على مصطبة شباكها وتشخص فى الفراغ وترهف السمع فيضـن عليها ليلها ويشتعل الوجد فتنادى بنغمة صوت مسحوق.

- ابتسام..

لأن تأتى إليها تنظـر النجـوم وتوشـوش القمـر بجوارها.. تعدو إليها الصغيرة بضفائرها الذهبية وخدود تفاح وردية..

- رددى ورائى يا حبيبتى وانظرى معى إلـى القمر فهو ينظر إلينا..

ترفع ابتسام عينيها العسليتين تنظر القمر

- أبى عد إلينا.. ومعك جدتى حورية

تردد وراءها وتلتفت إلى أمهـا تعانقهـا بنظـرات الحنين.

- أمى ما شكل أبى؟

تترقرق من دمع فايزة دمعتان معتمتـان فيضـيئهما القمر فتتلألأ على وجنتيها متناثرة.. على نهديها على زنـار

اف خصرها النحيل.. تلم اللآلى بحنايا كفيها لتبلـل شـباكها فيتندى لها حديدة فيلين ويحن إليها من دموع أضاءها قمـر غزة الحزين.

زيت وزعتر.. فطائر محشوة بالزبيب وجوز الهنـد ونكهة القرفة والعسل نغرق به فطائرنا.. كم كنا نتلـذذ فـى جمعات تتعانق فيها الأيدى ونقتطع اللقيمات نقتات منها ومن ذكريات عذبة فى عالم مسحور لفنا ودار بنا من بيت جـدتى إلى بيتنا.

كم كان يطيب لنا النظر إلى ابتسام الجميلـة.. يـوم ضاعت بسمتنا أتت إلينا فى صيف ساخن جدا صـيف ٦٧.. وجاء بعدها أخى ليدور الحكى والكلام من تغريـده جميلـة بصوتها الندى:

- سأزوج ابتسام لعمر هـذه عروسـك أيهـا الصغير الشقى..

يقترب منها ويأخذ الصغيرة إلى حـديقتنا تحتضـن عروستها والصغير يحتضن رشاشه وكلما تعثرت الصـغيرة بخطواتها تهب إليها فايزة..

- باسم ا حبيبتى.. أريدك جميلة ليوم يعـود إلينا أبوك فتفرحين قلبه بعد أيـام وجيعـة يعلـم ا كيـف يعيشها..

تحتضنها وترفعها إلى صدرها تلثم خـديها فتسـتنيم جفونها وتغرقها فى بحر قبلاتها فتنام لتستفيق هناك فى بيت جدتى.. لتينه مترية تتوسط فناء الدار.. ومع لعب الصـغار تتراقص الأمانى وتكبر الآمال..

كلما غاضت الأضواء المبعثرة مـن البعـد لنجـوم أنهكها الوميض.. كانت هى.. ابتسام الصغيرة المحرك لقلبها فتمتد إليها شرايين الحياة فى إصرار على البقاء.. تأتى بهـا وتجلسها قبالتها تفـرد شـعرها لتعقـد ضـفائرها تعقـدها بالهدهدات والترنيمات فتهز ابتسام قـدميها وتعقـد أصـابع راحتيها مستسلمة لكفى أمها.. واليوم تفتش فايزة بين ثنايـا شعر الصغيرة.. تذكرت كلمات أم ياسر والسائل الذى تدهن به شعر بناتها ليصبح لامعاً براقاً.. علا صـوتها تنـادى أم ياسر.. خرجت إليها..

- هل لك أن تناولينى هذا السائل الذى تقـولين عنه لأدهن شعر بنيتى..

أسرعت أم ياسر تحضر لها ما طلبت وخاطبتها قائلة..

- ولكن يا فايزة احذرى أن تكثرى منه وبعد ساعة تدخلينها إلى الحمام لأن تأثيره قوى وبعد شطفه جيداً سيعطى شعرها قوة ولمعة براقة..

تناولته منها وأخذت تسكب منه على كف يدها وتماس به على شعر الصغيرة تغوص فيه تفرك جلدة رأسها لتحصل على النتيجة المبتغاة لشعر ذهبى يعانق خيوط الشمس.. وبعدها تجدل ضفائرها وتحمها بخيوط ذهبية.. قرنفلية.. أو من لون عناقيد العنب.. جلست ابتسام لها مستسلمة وانفلتت من بين يديها تلهو وتلعب ثم ما لبثت تعود تطاب خبز بزعتر وزيت.. تسرع تناولها وتذكرها بقرب موعد حمامها.. إناء الماء على عين النار يتصاعد دخانه كسحابات فضية تتماسك تارة وتنفصل تارة أخرى.. حتى تصل لسقف الحمام ويلف الحوائط لينفذ من تحت عقب الباب.. تقف ابتسام فى فناء الدار على مقعد الخيزران لتطول خيوط الشمس الممتدة ما بين أوراق شجرة التين.. وتنادى أمى تعالى انظرى هناك.. نظرت إلى الطيارة الورقية التى

يطيرها ياسر ترفرف بذيلها تتهادى مع الريح ترتفع.. يشـد الخيط فيهبط بها.. يعانقها بنظراته الممتدة إليهـا.. يمتطيهـا بقدميه الواقفتين فى فناء الدار ولكنه سافر بها بعيداً بعيداً إلى الأفق الممتد يفتش عن الأسرار.. يفتش عن الغياب.. يطـل عليهم بعيون طائرته الورقية فتحمل سلاماً.. وتلقـى ألـف سلام..

وقفت تنادى:

- أمى أريد أن أطير معها لأسافر إلى الشمس.

تلتفت إليها وسرحت ببصرها نحو الطائرة الورقيـة تنهدت وزفرت وحملتها لتأخذ حمامها شقت فايزة الضـباب تمد يدها للإناء وتسكب على الشعر الذهبى فتسيل المياه مـن أعلى رأسها محملة برغاوى الصابون تسيل تنساب لتمسـح قسمات وجه الصغيرة تغمض عيونها وتزاحم شـفتيها ذرات المياه فترطب بها الرضاب لتبتلعها إلـى أن لفتهـا بمنشـفة وردية ضمتها وخرجت بها إلى غرفتها تلبسـها ملابسـها.. تمشط شعرها وتجدل ضفائرها التى لمعت فى عيون شـمس راحلة إلى غروبها.. انطلقـت الصـغيرة تعـدو لتمتطـى أرجوحتها الصغيرة المربوطة بفرع شجرة التين ترتفع بهـا

فترفع عينيها تعانق شعاع الشمس وتهبط بهـا فيهـيم قلبهـا الصغير على تراب الأرض.. تعثرت أرجوحتها فتحت كف يدها عن حبالها فهوت وصرخت تنادى

- أمى وجع فى بطنى..

فزعت الأم لصراخها رنت إليها لمتها فى صـدرها نظرت وجهها.. صفرة تنسحب على محياها.. ذرات عـرق يتفصد من جسدها..

غاضت العينان العسليتان فى الجفون.. تهزها تناديهـا أن تستفيق لها.. تجيبها الذراع تهوى وتتأرجح مع لفتات فايزة المرتعشة المذعورة ضمتها.. وأخذت تعدو بها فى فناء الـدار ذهاباً .. إياباً فتزداد القدمان الصغيرتان تأرجحاً واليد المنفلتـة من حضنها متأرجحة.. صرخت أم ياسـر.. سـعيد.. انـدفع الجميع نحوها.. ليشهدوا استسلام جسد الصغيرة فى حضن أمها فى تغريبة فلسطينية لضياع الهدية لرحيل الشمس فى غروبها.. تصرخ فايزة.. كانت تريد أن تطير.. حضر الطبيب وهمـس إلى الخال أبى ياسر..أنه السم سرى فى دمها فكان أقوى مـن دقات قلبها سمعت فايزة تمتمـات الطبيـب صـرخت وعـلا صراخها ليسمعه القمر.. واندفعت بكل قوتهـا إلـى المطـبخ

والنسوة وراءها لتستل السكين.. يتكاتفن عليها وهى تهـذى.. سأقطع هاتين.. بيدى أنا.. طيرت فرخى.. بيـدى أنـا أمـت صغيرتى..

كانت ليلة صيفية زارنا فيها القمر وحط على أوراق شجرة التين فأضاء وجه الصغيرة النائمة الراحلـة فلمعـت الرموش المسدلة وعقدت الضفائر الذهبية لمهـا ضـياؤه.. احتواها.. أنهضها.. مدت الصغيرة يدها تمسح وجه القمر.. فمضى بها.. مضى بالصغيرة.. مضى بالهدية ليضـئ ليـل غزة الحزين فى ليلة صيف كان القمر فيها قريباً قريباً..

العود الثامن عشر

تحت أوراق التين

أزاح النور عتمتنا فحام يزيح ظلال أغرقنـا فيهـا حزننا.. ظلال أشجار التين وترعـرع صـبارنا اسـتقامت أشواكه تعانق خيوط النور لتنسج حكايات مدينتنا.. تنسـحب خيوط النور تضئ فناء دارها تفتش عن الصبية عن الهدية..

تتحمس وسادتها المطرزة تلتقط من عليها بقايا مـن خصلات شعرها الذهبية ترفعها وتشلح بصرها لتنزلق مـن عليها نظراتها التائهة..

تلتفت أين هى؟.. أين الصبية؟ أين الهدية..

تنظر أطفالها تهب من فراشـها إلـى فنـاء الـدار فالصوت البعيد آت من هناك يناديها إنها هى.. همسـاتها.. وشوشاتها

- أين الفطور يا أمى.. أريد رغيفاً بزعتر وزيت

تمضى إلى المطبخ تلتقط الأرغفة الملفوفة فى السلة توزعها على الطاولة الخشبية المسـتديرة يجلـس الجميـع ودخان الخبز بات فحيح صمت ممزوج بحزن شجى تجرحه بكلماتها المذبوحة..

- حالاً ستأتى ابتسام

تلتفت وراءها فتذهب الأبصار معها نحو الباب إلـى النافذة تنادى

- ابتسام هيا يا بنيتى.. لقد أعددت لك كل ما تحبين

فايزة تنهض تقيم طولها تعدو لتصل شـجرة التـين تستصرخ فروعها أوراقها تهزها تنتحب على أغصانها وتلقى بجسدها على تراب الأرض يردد الصدى كلماتها

- كيف لى أن أحيا هنا وأنت هناك!!

تنشج بعبرات تسافر إليها هناك ولن تعود بهـا لـن تعود..

بدأ ضجيج الصبح يتسحب إلينا وعادت الأقدام تـأتى إلى دارنا.. بزيارات امرأة الخال.. ما أن تطل علينا حتـى تقابلها أمى مرحبة.. تربت على كتفها وكأن العـزاء لا زال مقيماً.. تتجه نظراتها إلى أخى عمر الصغير الواقف بالبـاب ينظرها.. ويمر بنظراته الطفولية بالمقاعد الخاوية مفتشاً عن رفيقته الصغيرة فلا يجدها.. يقترب من فايزة يلامس سـاقها وعيناه منغرستان فى قسمات وجهها الحزينة بذراعيها تطوقه تضمه إلى صدرها وتنشج نشيجاً مكتوماً ثم تمسـح براحـة يدها على رأسه وتنظر إليه تدقق فى ملامح وجهـه عسـاها

ترى صغيرتها تطل من عينيه.. يتوارى عنا عمر برشاشـه وتوارى فايزة دموعها التى تغرق فيها وسادتها فـى ليـالى يسافر فيها القمر فتسحقها العتمة..تغرق فى الأنـين ويـئن الجسد الهالك فى طريق لا تعرف طريقاً للرجوع منه..

قلت زياراتها إلينا.. وباتت أمى تتقلب فـى فراشـها قلقاً عليها وعلى ما آل إليه حالها.. تذهب إليها تجدها حبيسة لجدران غرفتها تاركه جسدها هائماً على فراشها لا تعـرف أين تقيم جسدها أو بأى اتجاه تتحرك معه.. دخلت أمى عليها فلم تحفل بقدومها وكأنها لم تستشعر وجودها اقتربـت أمـى تناديها وهى شاخصة فى الفضاء.. لمت أمى الوسائد تسـتند عليها.. أحضرت لها الصينية بحساء الدجاج.. تنبهت فـايزة فنهضت ومدت يدها للصينية خجلة واعتذرت لأمى..

- لا يا أختى شريفة أنا سأتناول طعامى بمفردى

وضعت أمى الصينية أمامها وبدأت فـايزة تغـرق المعلقة بالحساء وترفعها.. فهال أمى ما رأت.. رفعت فايزة الملعقة لتضعها على مقدمة أنفهـا فتتنبـه لـدفء الحسـاء المنساب على شفتيها.. فتحاول بالملعقة مرة أخرى تملؤهـا وتفرغها على خدها فينساب الحساء يبلل ذقنها وينساب ليطال

رقبتها وأطراف ردائها.. تسـمرت نظـرات أمـى عليهـا وترقرقت عبارات الصمت والحزن الشجى.. أزاحت الصينية جانباً ولمتها فى حضنها..

- لا تخافى يا حبيبتى غدا سـنذهب للطبيـب وسيتحسن حالك.. فايزة لا تخافى..

استسلمت فايزة لها تعد نفسها ليوم غد ومـا يحملـه إليها فى عيادة الطبيب، وقع الكشف والفحص عليها..

- افتحى عينيك.. انظـرى أسـفل.. يمينـاً.. يساراً.. إلى أعلى.. خذى شهيقاً.. أعطنى زفيراً.. اسـمعينى صوت الآه..

فتخرج الآه من صدرها متفحمة زفر الطبيب لآهاتها وخرج بأمى خارج غرفة الكشف:

- ما صلة القرابة؟
- إنها زوجة أخى
- أين هو؟
- لم يعد مع العائدين.. طمنى يا دكتور
- الحالة متأخرة.. شدى حيلك

أطاحت بها كلماته فى صدمة تحاول أن تصحو منها

- كيف تكون الحالة متأخرة؟

- مرض عضال استفحل فى مراكز حساسـة فى المخ ولا أمل فى جراحة وستحول إلى مستشفى "هداسـا" الإمكانيات هنا ضعيفة لهذه الحالات..

بنبرة التحدى ردت:

- لن أقف هكذا سأعرضها على عدة جهات قد يكون هناك أمل

تركته تشق طريقها إليها.. مسـتلقية علـى سـرير الكشف كطفلة تنظر أماً تنهضها وتحملها فتمضى معها..

- فايزة هيا يا حبيبتى..

لفت أمى ساعدها تحوطها خوفاً من سقوطها.. وبات الحديث يدور كيف سنتدبر أمر فايزة لتنجو من هذا المتربص لها.. سآخذها إلى مستشـفى " هداسـا " فـى تـل الربيـع وسأعرضها على البروفسير المختص بهـذا المـرض كمـا أمرنى الطبيب.. تقدمت العربة لتقل امرأة خالى ومعها أمى..

التفتت فايزة إليها

- ألم يأت كاظم؟

- لا تقلقى يا حبيبتى سيأتى قريباً

ردت عليها:

- ويوم يأت لن يجد ابتسام الصـغيرة.. لـن يجـد الهدية..

- أنت البركة فيك يا فايزة غدا سيرجع كـاظم ويرزقك ا ويعوضك خيراً..

يعلو صوت محرك السيارة فى صعود الجبال فيسود صمت حزين.. إلى أن أطلت مستشفى " هداسا " من بعيـد.. وتنزل فايزة تتلقفها ذراع أمى.. كان القسم ملـئ بحـالات كثيرة متباينة ومتشابهة.. أخذت فايزة من يد أمى المتشـبثة بها ودخلوا بها عبر الدهاليز والممرات وخرج إليها الطبيـب يطلب منها السفر لأن المبيت ممنوع وأعطـى لهـا موعـد الزيارة.. عادت تطمئن حالها على مصير فايزة.. وتقول لنا:

- كثيرون تعرضوا لأكثر من هذا وكتب لهـم النجاة.. بعد ثلاثة أيام سأذهب إليها وسيكون موعد زيارتهـا وستكون بخير قلبى يدلنى..

دارت عجلات السيارة تشق عباب الطرقـات إلـى مستشفى " هداسا ".. حان موعد الزيارة البوابـات مفتوحـة تدفع أمى بجسدها إلى الداخل مسرعة تحمل بكلتا يديها ما قد

تشتهيه فايزة دخلت إلى الردهة ومنها إلى الجناح الذى يضم فايزة ومرضى أمثالها فزعت.. شهقت أمسكت بأطراف ثوبها تتجلد به لأمرأة تجلس برأس صلعاء ملساء وعيون تقفز من محجرين غائرين.. وقعت نظراتها الزائغة على أمى.. فزعت وأفزعت.. صرخت.. وهبت من مطرحها تعدو ما بين الأسرة والطرقات.. تستجير.. تستغيث.. تنادى الطبيب.. تلحقه بالسباب وتقترب من المرآة تشير لأمى بإصبعها على رأسها.. لقد قص الرجل شعرى يا شريفة.. هذا الشقى قص شعرى انظرى إليه.. تصرخ.. تهرول.. تنادى كاظم ما بين فتحات النوافذ وتنتقل لنافذة أخرى تنادى حورية.. ترحل عيونها نحو السماء تنادى ابتسام..

تهاوى جسد أمى على بلاط الغرفة لم تر مقعداً.. لم تر إلا هضابا تلالاً جبالاً ترزخ تحتها تئن من ثقلها.. اقتربت الممرضات منها ولاحقوها بإبرة تسكن ثورتها فهدأت ونامت.. عادت أمى بقلب يهيم على الطرقات لقد رأتها تحتضر أم هى الحياة فى مستشفى " هداسا " وصلات أمى إلينا تفتش عن يد تقيم طولها.. قالت لنا الزيارة بعد ثلاثة أيام.. وقع لى الطبيب على هذا

- أمى كيف حال امرأة خالى؟

- لا يعلم إلا ا يا بنيتى..

رنين – رنين – رنين

- مستشفى هداسا.. يجب حضوركم غداً.. لقد رحلت المريضة فايزة..

قفل الخط.. ترنحت أمى وشدت غطاء رأسها وشدت الهاتف فتمددت أسلاكه التى انفلتت منها.. وفتشت بين طيات صدرها وأخرجت إذن الزيارة.. تشخص فيه.. فتبلل بالدموع فأغرقت موعد زيارتها الأخيـرة فـى طيـات الحكايـات الموجعة..

سارعت السيارات تسابق الريح لتأتى بها.. فتحـت بوابات المستشفى.. وخرجت إليهم بجوال من التيل المربوط من آخر رأسها ضمتها سياراتنا تمضى بهـا نحـو الـتلال الرملية إلى غزة الحزينة..

دخلت امرأة خالى يلمها جوال التيـل إلـى دارهـا وسجيت تحت أوراق شجرة التين وسـط نشـيج النسـوة.. يقطعن القماش الأبيض الحريرى ليلفها..

همست أم ياسر تنظر إلى أمى:

- بجوار ابنتها يا شريفة

ضمها الكفن الحريـرى وتناولتهـا أيـدى الرجـال يحملونها فتترك فناء دارها قبل أن يطل عليها قمـر غـزة الحزين.. خرجوا بها إلى البرية فى الظهيرة..

هبت رياح عاوية فى قلب ذاكرتى.. جدتى حورية.. ضحكاتنا.. بكاؤنا إصرارنا على أن تصحبنا لـدار السـينما التى تجاور بيتها.. صياح جدتى وكلماتها التى تطن فى أذنى لقد أرسلتكم شريفة إلى لتقلوا راحتى ولكن ما لى حيلة أمامكم وكان أول عهد لى فى دار سينما لفيلم مصرى " الحرام "

عزيزة أضاء لها القمر طريقاً يوم عادت إلى هنـاك حيث البرية فى بلدتها موطنها وفايزة امرأة الخال حزن لهـا القمر يوم أضاء بلدتنا كانت هى هناك فى البرية.. حزن لها وظل يطل على ليل غزه الذى دوما كان ليل حزين.

العود التاسع عشر

مدفأتنا القديمة

مدفأتنا باتت قديمة كأحجارنا يوم كانـت آراميـة.. وأساس بيوتنا ولا زالت كنعانية.. مدفأتنا قديمـة يـئن فـى جوفها أعواد حطب محترقة من أيام غـابرة وسـط سـنين ابتلعتها أحداث ماكره..

فى ليل غزه الحزين ستبقى ذكراهـا سـرمدية مـع غياض غبار فانوس لفتيل تفحم.. علا نبـاح الكلـب فـأيقظ الخوف الرابض على صدر أمى..

أسرعت بخطوات مهتزة نحو البوابة..

- فاروق.. أخى.. ما الخبر..
- لقد عادت أمى
- وهل رجع كاظم؟

ترك خطواته تقوده عبر الممر الطويل لحديقتنا ليجد له مقعداً يلقى بجسده عليه وأمى تسير وراءه يقودها صـمت موحش تطبق له الأنفاس..

- هيا يا شريفة ستعودى معى الآن.. لتشـدى من عزم أمى وأخيك كاظم..

نظرت أمى ساعة الحائط والعقارب الـدائرة تتلفـت حولها..

- ولكن منع التجوال بعد ساعة

فأجابها بصوت خفيض

- سنشق طريقنا وسط بيارات البرتقال ونمـر من حارة الفواخير وتقضين الليلة معنا..

اندفعت شريفة إلى الداخل شدت شـالها لتلـف بـه رأسها تخاف أن تنفلت منها اللحظة فتدميها أحداث أكبـر لا تقوى على احتمالها..

ازداد الشارع الطويل فى ليلهـا طـولاً وزاد دوران الآنية الفخارية بيد صانع الفخار.. ولهاث أمى ما كف يخرج ممزقاً لأوتار صوتها.. وفاروق يسند ذراعها مع أول خطوة تتخطى بها عتبة البوابة الحديدية.. ما أن رأت جدتى حورية حتى انتشلت يدها من ساعد أخيها لتتوه الأذرع ملتفة تطوق باقى الحكايات الغاربة.. الشاردة فى سماء تقترب وتقتـرب لتغرق فى نشيجها.. تستفيق جدتى تتحسس الوسائد تـتلمس الفرشات تنظر أمى.. وتنسدل الأهداب ويتوه السؤال..

- كيف ضاعت منـا فـايزة؟!! ذهبـت إلـى صغيرتها ذهبت لتأتى لنا بالهدية..

والتفتت أمى تبحث بعينيها..

- أين كاظم..

ساد الصمت لتحاكى العيون.. العيون من البوابة الحديدية إلى بوابات موصدة غلفها التراب وألبسها رداءه..

دكان الحدادة الملاصق لغرف الدار من الناحية الشرقية وبواباته الموصدة على سنين توقف زمانها.. على عتبات أبوابها تتحسس بقدميها مكاناً تسع خطواتها لأكوام وقطع حديدية متفرقة.. ملتصقة.. متلاحمة.. تهمس بصوت خفيض:

- كاظم

أخذ ينتشل جسده المترضرض قطعة وراء قطعة وجبهته متغضنة تخفى وراءها أشياء وأشياء.. أقام طوله خلف ماكينة الخراطة يمرر ذراعه عليها يزيح ترابها بأطراف أنامله وما يلبث يرفع كفه المنغمسة بترابها ينظرها ثم يمسح بها بملابسة ويعود يمرر راحة كفه على مقدمة المخرطة يتحسس بقايا زمن ضاع مع شذرات الحديد المتطايرة ووهج تناثر هنا وهناك ويرفع نظره إلى السقف يلم بيوت العنكبوت يقطعها ويرميها فتتهدل على بقايا حديد ملقى على الأرض.. زفر وتنهد..

- لقد عدت يا شريفة.. عدت ورحلـت فـايزة كانت أيام سجنى فى الضفة الشرقية مريرة فى تقليم أظافر.. اجتثاث أسنان.. ولا زالوا يحاولون يصرون على الوصـول إلى الصدور ليخمدوا فيها كل قبس من نور..

حملنى النهر إلى هنا إلى ضفة غربية.. حملنى نهر جف وتشققت جوانبه فلم تعد شـرقية ولا غربيـة.. جفـت حلوقنا يا شريفة بعد جفاف نهرنا..

ساد صمت

نظر إلى كف يده الغليظة وقال:

- لا زالت معى كف يدى ولا زلت قادراً على تحريك أصابعى وعاد يتحسس مخرطته بحنو دافق سـيعود المكن.. وسأعود أطوع الحديد ويلين لى..

- ولكن يا أخى كم من المرات داهمنا الجـيش وسأل عن هذا المكان وما يحتويه وعن اسم صاحبه ومكانـه فكانت خيوط العنكبوت المنسدلة من علـى زوايـا البوابـة الحديدية تجيبهم.. فتذهب شرهم ونبدأ نلتقط أنفاسنا لسـماعنا وقع أقدامهم المبتعدة

قاطعها قائلاً:

- ما شكل الصغيرة ابتسام؟

تلجلجت أمامه وواصلت بعمق المقاومة التى تـدفعها لأن تواصل معه..

- كانت ضفائرها ذهبية تعانق خيوط الشمس

- هل ذكرتنى فايزة

لم تكف تناديك من عبر النوافذ من مستشفى هداسـا لتأتى إليها تحملها معك.. لكن الحـزن قتلهـا بعـد ضـياع الهدية..

بعودة جدتى حورية علا نور القنديل فـى دارهـا.. وظلت شجرة التين هى الحكاية التى تلم تحت ظلالهـا كـل الحكايات.. تشهد لعبنا.. ومرحنا.. ضحكاتنا.. وحين تماسكنا وتباطحنا.. ونعود للنهوض من جديد متحمسين مائجين..

ارتفع صوت من بين أجسـاد الأحفـاد المتراكمـة صراخ.. واستغاثة.. اندفعت جدتى نحونا لنجـدتى أمسـك بذراعى الذى كدته خلع من مكانه.. فزعت وقالت:

- ارفعيه إلى أعلا

- لا أستطيع

وتتابعت صرخاتى المتقطعة كلما لامست يدها يدى.. دارت حول نفسها ولحظة كانت خارج الدار تسبق خطواتهـا خطواتى الصغيرة ثم ما تلبث تلتفت وراءها تجـدنى اتبعهـا وأحاول أن أهم لأصل إليها..

أسألها:

- هل وصلنا يا جدتى
- بعد قليل

ومن شارع إلى شارع ومن زقاق تولد أزقة واقترب الليل منا ليطوينا فى حنايا وزوايا بيوت لم أدخلها من قبل

- إلى أين نسير يا جدتى
- اتبعينى المسافة قاربت على النهاية

ونتوقف أمام الباب الخشبى بألواحه المائلة المستقيمة والمسامير صدئه مثبتة بأشكال عشوائية أسفل وأعلى يمينـا وشمالاً وفتحات طولية يستطيع الواقف بالخارج أن يرى فى حوض الدار كل ما تلتقطه عيناه..

- بيت من هذا؟
- بيت أبو محمود المجبر
- ماذا يجبر؟

- يجبر العظام المكسورة.. المعوجة يعدلها..
- أنا خائفة..
- لا تخافى كونى شجاعة ستشـفين وتعـودين كما كنت

بعد لحظات فتح الباب بأزيز كأجراس خطر تطن فى صدرى فيعلو ويهبط وتتبعه دقات قلبى تلاحقهـا أنفاسـى.. أنظر وأطوف بنظراتى الخائفة بالحوش الفسيح فلا أجد أبـا محمود هذا.. أكوام قش هنا.. وعيدان حطب هنـاك وأشـم رائحة الموقدة وطقطقات حطب..

يا إلهى.. إلى أى مصير تسوقنى جـدتى فـى هـذا المكان.. وقفت بعيداً ولكن بدت آذانى تبصـران وعينـاى تزوغان ولم أعد أميز بين هذا وذاك.. علا صوت صـراخ من الداخل.. أمسكت بطرف ثوب جدتى ثم تسحبت كف يدى المتشبثة بردائها إلى أكمامها المدلاة منـا.. وهـى ماضـية لغايتها دون اكتراث لدقات قلبى الذى كان يتفجر بين حنايـا ضلوعى.. خرج الصبى من الداخل:

- تفضلى يا خاله..

نظرت إلى ودفعت بى من كتفى إلى الـداخل إلـى ظلام وغبار فانوس شاحب يعكس ملامح وجهه التى لم أعد أذكرها

- الصبية خلع كتفها من مكانه..
- اقتربى منى

دفعتنى جدتى ليزداد قربى منه أكثر وأكثر.. تسمرت فى مكانى أقابله باتت يده تطالنى.. مد يده نحوى

- باسم ا ..لا تخافى يا صغيرتى
- اعطنى يدك
- لا استطيع

أمسك بها ولا أعلم ما الذى حـدث ولكنـى عـدت أدراجى عبر الأزقة والحارات وراء جدتى كما ذهبت ولكـن بيدى كرة صغيرة ناولنى إياها وقال لها:

- لتقافز الصغيرة الكرة إلى أن تصـل الـدار تحرك يدها مع حركتها..

عدت والكرة تتقافز أمامى بيدى المخلوعـة التفتـت جدتى نحوى:

- ستسيرين الشـارع الطويـل عبـر حـارة الفواخير لتصلين إلى شريفة معى وتشـاهد يـدك ويطمـئن قلبها..

فرحت لهذا الطريق الذى يشق منطقة الزيتون فـى غزه.. الطريق الذى أحب أن أمضى منه وإليـه.. والكـرة تتقافز أمامى.. وتتقافز الصور معها امـرأة خـالى "فـايزة" والطريق إليها والسلال محمولة.. وصفرة علات وجـه أمـى بعدما وارى فايزة الثرى فأضاع ملامحهـا.. خـالى سـعيد وخطوط رسمتها دراجة غاصت فى قلب الرمال.. وحفـرت خطوطاً فى صدورنا.. الفواخير لا زالت تدور مـن طـين الأرض تنبجس تدور وتدور.. عـودة الخـال كـاظم إلـى المخرطة.. يخرط قطع السلاح الآتية إليه من قلب الليل مـن قلب الوجع.. يلين الحديد له ويصحو السلاح فى محل الحدادة فى قلب حى الزيتون.. عزيزة العائدة بنور القمر الذى أضاء لها طريق الرجوع.. جدتى التى تشق الطريق قبل أن تشـقه خيوط الفجر وتعدو وراءها كلاب الطريق عاوية ولكنهـا لا تثنى قدميها عن المضى لأجل الوصول لتنام هناك فى دراها حيث تتوسط فناءه تينه مترية.

العود العشرون

أحمر شفاه

حظر.. تجول.. عقارب ساعاتنا تدور فى قف وأدر وجهك للحائط..

- أين هويتك؟ أدخل بيتك..

عقارب ساعاتنا سموها منع تجول.. قبل المنع نحاول أن نلم حاجياتنا.. الأجنة فى الأرحام قد تقابل نور الشمس فى المنع مع الحصار أو ما بعده.. وكلمات جدتى:

- ماذا سنفعل إذا وضعت سعاد طفلها فى الحصار؟

ويسرع إليها الخال فاروق يتعجل الوقـت المـداهم دوما ينظر إلى بناية مستشفى الشفاء المطلة فى آخر شـارع الوحدة وعقارب الساعة تدور ليقترب من وقـت الحصـار ليحكم دائرته فتتحول ساعة يده إلى طريق أسفلتى يغرقه قار أسود..

وتدور عقارب ساعاتنا ترجع الأزمنة تتلاحق معهـا فتغلف الحكايات تطويها وتدور ترجع عقاربها لـتعلن عـن الوقت منع تجوال.. حصار.. وتسبح فى آذاننا أنغام الربابـة المبحوحة.. من فوق التلال تعانق عيوننا بحرنا.. رمال غزه تحن إليه.. فيحن لها.. وصوت مكبرات الصـوت تجـوب سماء شاحبة.. تجوب السهول فى كلمات توحشت داخلنا..

- أدخل بيتك

وتأتى الجرافات مع بداية ليلنا تمسح آثار خطواتنـا على الرمال.. لتقتفى أقدام الرجال الآتين من قلب البحر دون موعد.. تلف الدوريات تحاصرنا.. تحاصر رمالنا.. شـطآننا فى غبش الفجر تأتينا رياحهم تهب علينا فتنغرس خطـواتهم فى تراب الأرض.. تنغمس فى رمال شطآننا.. فتبات أقـدام الليل تشابه أقدام النهار ولا زال الحصار.. قف هنا.. منـع تجوال..

صار الحديث هو متنفس لأرواحنا الحبيسة فعـادت النسوة يجتمعن فى أيام أسموها يوم الاستقبال تقسـم علـى أدوار تلف مع الأيام من بيت إلى بيت.. الثلاثاء يوم الزيارة إلى بيت أم سالم والأربعاء أم إبراهيم يوم الخميس أم طلال.. أما أمى كان ترتيبها متغيراً يومين من كل شـهر العشـرون والحادى والعشرون.. كنا ننشغل بتنظيف البيت قبلها بأيـام حوائط نظيفة زجاج ومرايا تبرق خراطيم المياه تزيح التراب وأوراق الشجر المتساقطة على بلاط الممرات فى الحديقـة.. وأباريق فضية فيها عصير الليمونادة الراقدة فى البراد مـن الصباح فتخرج باردة ترطب الشفاه وتعيد الأنفـاس اللاهثـة

لالتقاط أطراف الأحاديث والحكايات.. من الخالة مسرة الآتية إلى دارنا فى أوج أناقتها حتى مظلتها لا تنسى أن تقفلها على بوابة بيتنا.. والحاجة أم راتب تحمل حذاء لامعاً تخرجه من الكيس وتلبسه عند وصولها لأول العتبة مبدلة إياه بحذاء لَـمَ تراب الطريق.. النسوة يتوافدن تباعاً هذا اليوم مـع الوقـت الآزف المبطن بمنع التجوال.. الزيارة مبكرة ليكسبن مزيـداً من الوقت للأقاصيص والحكايات.. أم العبد جارتنـا بثوبهـا الأزرق بلون شطآننا والأزرار الكبيرة التى تعتلـى سـترتها وحقيبة يدها سوداء لامعة تعكس نور قنديلنا المتـدلى بـين أوراق العنب وأحمر شفاه مرت به على شفتيها بلون زهـور شقائق النعمان.. وشعر مصفف لا يطـاوع نسـمات هـواء صيفية.. رائحة عطرها من روح الياسمين بعبق الهواء فيلف عطرها على براعم وأوراق أشجارنا.. لمحت أمـى طيفهـا يعبر الردهة الطويلة وقفت على درجات البيت ترحب بها:

- أم العبد.. أهلاً وسهلاً

تلفتت النسوة بنظرات الدهشة والتحفز استعدلن فـى جلوسهن على الأرائك وبدأ همسهن كدمدمة غيـر مفهومـة فتقابلت الرؤوس بالرؤوس وتحاكت العيون بالغمز واللمز..

ارتفع صوت أم طلال

- خسارة أبو العبد قَتِـلَ العمـل فـى جهـاز الشرطة فى زمن الاحتلال هذا.

فردت عليها النسوة بهز رؤوسهن وضـمت الشـفاه وارتفعت الحواجب وزفرات تحسر عما جرى وعما يجرى.. وعيونهن على باب البهو للحظة قدوم أم العبـد لمجلسـهن.. فساد الصمت وألقت تحيتها مختارة مقعداً خاوياً أخذت مكانها فيه.. حام عطرها فى بهو دارنا وحقيبة يدها استنامت علـى النضد المجاور لها.. وعادت أم طلال تكمل حديثها بصـدر يرتفع حينا وينخفض حيناً آخر وحبات العرق تتفصـد عـن جبينها..

- لم نذق طعم النوم فى الليالى الماضية بيـت الفيومى وما جرى فيه.. والطائرات المروحية نخالها فـوق رؤوسنا تنقل قتلاهم وجرحاهم..

ردت إحدى النسوة:

- ومين سمعك يا أم طلال.. أبو سهيل وإبنـى سميح طوال الليل فى تفكر وقلق وتساؤلات بعـد استشـهاد

الرجال ومن أين أتت الوشاية.. ربنا لا يكسب إلا ى كـانوا السبب ربنا لا يسترهم لا دنيا ولا آخرة..

قاطعتهم الحاجة مسرة:

- هم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون..

وارتفع صوتها مع ارتطام كف يدها على يد المقعد

- رجالنا سيعرفون وحتما من أين جاءت الوشاية

قطعت أمى الكلمات المحمومة بصينية فضية تحمـل عليها أكواب عصـير الليمونـادة الـذى رطـب الحنـاجر الملتاعة.. مدت يدها بالصينية لأم العبد فرفعت يد مرتعشـة شدت كوب العصير فانسكب منها على حوافه وتناثر علـى ثوبها الأزرق بلون شطآننا تلفتت من حولها يحوطها الارتباك تناولت منديلها القطنى من حقيبتها محاولة أن تجفـف بقـع خلفها العصير المسكوب.. ولم يمض وقت حتى كانت تغادر دارنا من ممر الحديقة إلى البوابة الحديدية ومن آخر الشارع القريب غابت خلف حوائط دارها ثم استدارت النسـوة فـى مقاعدهن يتلهفن على الوقت الذى مضى بهن واقتراب موعد الحصار.. فسارعت كل منهن تلم حاجياتها قبل أن يـداهمهن المنع..

قفل باب حديقتنا بآخر صوت لصفق المزلاج ونـور القنديل لفها حتى غرقا سوياً فى وحشـة الصـمت.. كانـت الريح فى ليلتنا هذه مولولة بين أغصان الشجر لقمر لم تكتمل استدارته ولكن الطوق استدار واحكم استدراته.. حصـار.. طوق.. صمت ووحشة.. علا نباح الكلـب وبـدأ الجنزيـر يضرب بالصاج.. جَفَلتُ فى فراشى ولـم تسـعفنى أجـزاء جسدى أن أحركها لأنهـض وأرى.. استسـلمت للخيـالات والهواجس تفترسنى..

وأصوات أوراق الشجر اسمعها تتكسر تحـت وقـع أقدام.. نداءات غامضة.. همهمات.. أحاديث متنافرة.. ويعلو صوت ارتطام الجنزير على نباح الكلب.. وجسـدى يتجمـد يلتصق فى الفراش إلا من صوت أنفاسى.. دقـات قلبـى.. جفاف حلقى.. خطوات أبى أسمعها نعم لغط متواصـل مـن حولى لا يفتر لهدير جارف إلى أن ترنح ليلنا فـى طلقـات رصاص اهتـزت لهـا جـدران بيتنـا.. نسـمع أنـين.. خوار..صرخات.. اندفعت أمى إلينا تنظرنـا بهلـع طحـن قواها.. عاجلنا أبى:

- حاولوا أن تناموا لا تنزعجوا

قطع كلماته صرخات امرأة تستغيث.. تسلسل أبـى وتسلسلت أمى لم يقدر أبى أن يتحرك من مكانه..

قال:

- شعرت بحركة غير عادية خرجت للحديقـة على صوت نباح الكلاب ظهرت لى رؤوس أصابعهم كانـت دامية من جدار السور الفاصل بينى وبيـنهم تـراءت لـى عيونهم تشع وميض بارد تخفيان صوراً غامضـة الحـدود والمعالم..

خاطبنى صوت أجش:

- ابق فى دارك يا أبا ماجد

تسمرت وترنح جسدى.. الحديقة تضج بالرجـال.. اتجهت نحو الكلاب أهدهده وأمسح على رأسـه فبـدأ يـزوم بصوت مكتوم

وعاد الصمت الموحش يحوطنا ويجثم على أنفاسنا.. خلع الليل رداءه وغابت أضواءه المبعثـرة كنجـوم أنهكهـا الوميض وهرع الجيران إلى الطريق بعدما أنفـك الطـوق ليستعلموا عما حدث فى ليلة الأمس.. اتجهوا نحو الصـراخ المتهتك من حنجرة رخوة فكان أبو العبد منكفئاً على الأرض

الترابى والتراب اختلط بدمه المتجمد على فتحـات أنفـه.. وبزى رجال البوليس الذى تعفر بالدم والتـراب والشـارات مزقت ودفست فى نعليه.. لم يستطع أحد أن يقترب من جثته الملقاة.. إلا زوجته وأبناؤه تعاونوا على إدخاله الدار وتبعتهم عربات الشرطة والمحققين.. ونحن والجميع احتوتنا دورنـا نقف خلف الشبابيك نرقب الطريق الذى مـر بـه الرجـال وعادوا منه.. دفعنى الفضول أن أقـف علـى أول الشـارع واقترب أكثر وأكثر من بيت أبى العبد ونشيج يحـوم بـين فتحات النوافذ.. فتحت البوابة وخرجت منه طاولة خشـبية.. ورجل مرتبك الملامح يردد:

- لا حول ولا قوة إلا با لقد تم الغسل أعاننى ا لأجل الثواب.

استقامت الطاولة الخشبية واسـندها الرجـل علـى الجدار شخصت إليها بناظرى على بقع الـدماء المتخثـرة.. لازالت تسيل ما بين القواطع الخشبية.. حمـراء..حمـراء.. دماء تسيل.. تتجمد.. تشهد.. لم تعد أم العبد تأتى للزيـارات مع النسوة فى يوم الاستقبال.. لم تعد ترتدى ثوبهـا الأزرق بلون شواطئنا.. ولا عاد أحمر الشفاه يخضب شفتيها بلـون

الورد الجورى.. زهيرات شقائق النعمان ظلت حبيسة النوافذ التى لفتها قواطع حديدية تظل تطل من خلالها كلما سـمعت وقع أقدام.. أو أوراق شجر تساقطت فى خريـف بلادنـا.. وداست عليها الأقدام فتكسرت.. وعادت أيام الحصار.. احكم الطوق منع تجوال.. وفك حصار..

العود الحادى والعشرون

ألا يكفى ما ضاع منا

هام ليل مدينتنا فسيّجها بسياج الحزن.. سياج صبار لا يرتوى إلا بنهار شمس تجف لها الأرض وتخمـد مواقـد قلوب اشتعلت واستحال رمادها.. من ظلال الليل الرماديـة حاكى القمر أوراق أشجارنا ووشوش دوالى العنب فرسـمها على طين بلادنا.. وسألت الصبية أمها حـين جلسـت فـى حضن ليل المدينة تشخص فى سماء غزه المطـرزة بحشـد نجيماتها

- أمى من كسر القمر؟!!

رفعت الأم بصرها شاخصة وجلست تلـتمس دفء صغيرتها.. بيد حانية تلفها القمر.. لأول مرة تنظر أمى إلى القمر ولأول مرة يدور يلف الأرض ليعود إلى سمائنا.. يعود كسيراً.. وباتت أمى تردد ونحن نحوطها

- من كسر القمر؟

وباتت تردد السؤال لنفسها لتغوص فى الحقيقة بـل حقائق تلعق مرارتها بطعم صبارنا رسمت وكتبت على وجه القمر..

ومن ظلال قلوبنا كنا نعيش أيامنا يدفعنا إليها أمـل لازال يخايل نور عيوننا.

- أمى تعالى انظرى معنا جموع مـن النـاس تتسابق لنواحى لا نعلمها ويعودون حاملين أخشاب وألـواح زجاجية ومقاعد.. كتب..

هرعت أمى نحو البوابة.. هالها مـا رأت.. نـادت للصبى المار من أمامنا بخطوات مسرعة

- هيا يا ولدى تعال

التفت إلينا بعجالة وباب خشبى يرزخ علـى كتفيـه فيحنى له رقبته.. نظرنا بتثاقل ينوء بالأحمال.. بعروق رقبته النافرة فتفيض على ملامح وجهه حمرة متقدة مطعمة بحبات عرق تتساقط على ردائه..

- خالتى ذهبنا لننزع الأبواب ونحمل المقاعـد وكل ما نستطيع من داخل المبـانى الحكوميـة والمـدارس فاليهود سيأخذون كل هذا يا خالتى ونحن سنأخذ ما نسـتطيع من تحت أيديهم

ومضى يتمتم:

- ألا يكفى ما ضاع منا.. وغاب عن أنظارنـا إلى الطريق المؤدى للمخيم.

تجمعنا على عتبة دارنا والمشاهد تتوالى من أمامنـا وأمى قفز قلبها لحامل الكتب التى تميل وتميل تقتـرب مـن السقوط فينحنى لها الرجل ليقيمها مرة أخرى من فوق حنايا كفيه.. ضاغطاً عليها بأسفل ذقنه بذرات العرق المتنـاثرة.. علا صوت أمى تناديه

- إلى أين؟!

- إلى بيتى وهذه الكتب من المكتبة..

- هل لى أن أراها

تقدم نحونا.. وكان لنا أول لقاء مع كامل الكيلانى فى مجموعاته القصصية للأطفال.. زاغت أبصارنا إليها.. مدت أمى يدها تناولت إحداها

بادرها الرجل قائلاً:

- لتقرأ بناتنا يا أختاه هذه لك

وخاطبنا بإصرار التحدى والعناد

- فلتقرأن يا بنات قد ينفك الحصار عنا وتعود كتبنا وترجع لنا بلادنا.. كليلة ودمنة.. سفروت الحطـاب.. يوسف إدريس..

العود الثانى والعشرون

لطمة.. إفاقة

على دخان موقدنا التففنا ننظر يـد أمـى الممسـكة بالملعقة الخشبية تحرك حبات العنب الغارقة فى عسلها تحت شجرة التين.. الموقدة فوق عيدان تحتـرق تتـوهج تخبـو جذوتها فتقف أمى تفتش بنظراتها على المزيد مـن العيـدان تدفسها ما بين القوائم الحجرية التى نصـبته لتلـف نيـران الحطب المحترق من أصيل يوم لفه دخاننا نرقـب بعيوننـا غليان عسل العنب فتطفو العوالق تزيحهـا أمـى بالمعلقـة الخشبية تلقيها بعيداً فتظهر حبات العنب طافية على سـطحه والدائرة مع حركة الملعقة فى عسله.. هذه المرة تنوى أمـى عمل المربى ببذور حبات العنب دون تصفيتها فـى شـاش أبيض ودغدغتها إلى أن ينساب منها عسل أسود تمـلأ بـه الصفائح المعدنية المملوءة بـ" الدبس " فتأخذ مكانهـا فـوق الأرفف فى غرفة الخزين..

مع حبات عنب أخرى جمعت من القطوف المتكومة وفرشت لها أمى الملاءات فوق سطح الدار نثـرت حباتـه لتقابل وجه الشمس على مدار الأيام لتنام فى حضـن القمـر فتتحول حباته الخضراء إلى لون جبال مؤاب فتزفها السـماء بزخات المطر تغسل حبات العنب المجففة فتعاجلها أمهاتنـا

تلمها زبيباً.. ونفتح الأجولة القطنية البيضاء لتستقر فيها ثـم تنتقل إلى غرفة الخزين..

يلمنا ليل غزه ونحن حول الموقد نحتفل بيوم طهـو العنب الذى يمتد ليقابل خيوط فجرنا.. أبريق الشاى يتوسـط الصينية تصبه أمى فى الأكواب وعيناها لا زالتا ترقب القدر بين الحين والحين تقف عليه بساعديها تحرك وتلف.. تدور..

صوت رشفات أبى لكوب الشاى تتناغم مع طقطقات عيدان الحطب وذكريات يلقى بها إلينا.. فتحيا معنـا ونحيـا معها..

- تعرفى يا شريفة فى أيام عصـيبة عشـتها وباقى الرجال فى جهادنا المقدس يوم أحكم حصارنا من قبل البريطانيين وعصابات اليهود قرب "القطمون" ولم يعد بـاقى الرجال وظللنا فى مركز القيادة نحـاول التقـاط إشـارات لاسلكية لنعرف ما حدث للباقين لم نطل النوم أربعـة أيـام بلياليها.. يومها اندفع اسماعيل من داخل غرفة القيادة مصاباً بهستريا الصراخ.. فكانت صرخاته تدوى تلف حوائط المكان الضيق الذى حوصرنا فيه..قمت من مقعـدى أمـام جهـاز اللاسلكى أمسكت به فتشبث بى صارخاً.. هززت جسده بقوة

لم يكف.. فهويت بكف يدى على خده.. فكانت لطمة تـرنح بعدها فهوى على المقعد الخشبى سيج الصمت ملامح وجهه واتسع السياج ليلف ما تبقى من جسده.. أفاق ونهض عائـداً إلى مقعده فى المراقبة..

ترك كوب الشاى منزويا فى رمـل الحديقـة عقـد ذراعيه التى بسطهما على صدره وكأنه يحتضن تلك الرؤيـا غير المنظورة.. سياج إسماعيل ذكرنا بسياج حوطته أمـى حول أرض لها هناك على الربوة المطلة على بحر غـزة.. نذهب إليها فتنغرس أقدامنا فوق الكثبان الرملية.. فى أرض عامر التى ورثتها عن أجدادها.. تأخذنا دومـاً إليهـا نمـد الخطى نرتقى التلال نجدها حوطتهـا.. سـيجتها وعلمـت علامات حدودها.. فرحة بها تنام وتصحو تذهب هناك تحمل الأحجار على عربات لتنقلها إليها تجهز طعام للعمال تحملـه لهم كل صباح فى جرى حثيث وعمل متواصل لـم ينقطـع كانت تعمل دون يد تساعد من أبى..

صباحاً نتجه إلى هناك إلى غرب المدينة من علـى التلال وهو يأخذ الطريق إلى شرقها حيث قاعات المحكمـة وملفات وأوراق المعتقلين.. وهى لا تكف تتحدث إلينا..

- اليوم سنضع أساس البناء

فيلوذ أبى بالصمت

- عربة محملة بأكياس أسمنتية شقت طريقها وسط التلال لينقلها باقى العمال إلى هناك ورمى الخلطة الخرسانية للأساس..

تقول بزهو:

- بيتنا هناك.. بيت بحرى سيقابل الشمس ويودعها وسأقيمه على أعمدة وألف حوائطه بفتحات كبيرة من الزجاج ألفها بستائر من الدانتيل الأبيض المطعم بنقشات تركوازية.. كانت أمى تأتينا حاملة معها علب خشبية مملوءة بحبات البندورة والكوسة والخيار.. باذنجان التى زرعتها فى أحواض وقسمتها إلى نواحى شرقية ونواحى غربية تنام وتصحو ترتب وتدبر وتؤكد لنا فى كلماتها الرصينة..

- هناك سنقضى صيفنا.. وهنا فى هذا البيت سيكون شتاؤنا

وأبى لائذ فى صمته الذى طالما قطعناه بتساؤلاتنا:

- أبى.. أنت لا تجدد فى فرش بيتنا.. مقاعدنا الخشبية لا زالت قديمة.. أسرتنا صيواننا كله قديم يا أبى..

نحن ندخل بيوتاً لعائلات كثيرة لصديقاتنا بيت " أبى رمضان " ودار " الريس " و" أبى شعبان " يفرشون دورهم بدرب من دروب الخيال

يشخص أبى فى بلاط بهونا ويرتفع بنظراتـه يلـم الحوائط يعلو بها إلى السقف ويعود بنظراته إلينا..

- يوماً.. قد يأتينا " بيجن " ويلقى بنـا هنـاك بعيداً على أطراف الصحراء..

نردد بصوت واحد:

- صحراء.. أى صحراء!!؟

- النقب.. سيناء ويسيج سياجاً يحول بيننا وبين بيوتنا.. روابينا.. آجامنا.. تلالنا..خمائلنا..

تقطع أمى كلماته بنبرات التحدى:

- ما هذا الكلام! ما حدث فـى الماضـى لـن يتكرر.. هجرة أخرى.. كيف؟!!

واختلط لون وجهها بحمرة قرمزية وحبـات عـرق طافت بجبينها فتندت له خدودها من قلق بدأ يستبد بهـا مـن خلف كلمات أبى ثم التفتت إلينا قائلة:

- أرأيتم نبات الجهنمية كيف تسلق من بين العشب البرى.. والأقحوان لف سور الرابية هناك ومع الوقت يلتف على النوافذ، وتتدلى أوراقه لتحوط البيت كله.. وتجنح شمس غزة للغروب فى بهاء آخاذ تلقى بأشعتها القرمزية المذهبة على التلال والروابى تصافح المياه.

خبطات بالباب الحديدى اندفاع الصبية الآتين من هناك من أرض عامر..

- خالتى الجرافات تتجه ناحية الأرض لتهدم بيوتنا التى بنيناها..

تصرخ أمى.. وتعدو وسط الطرقات وتنحنى مع الطرق الضيقة المشجرة تعتلى الرمال تنغرس قدماها فى الكثبان الرملية تنتزعها لتتقدم لتصل حيث هناك.. هدير الجرافات يفتت عظامها يطحنها.. اندفع أبى يقتفى طريقها.. لاحت من البعد ربوتها ولازال بيتنا واقفاً مطلاً عليها فلاذت بطمئنينتها اعتلت الرابية وانحدرت مع الرمال الذهبية.. هدير الجرافات يصم أذنيها.. يعمى عينيها

وصلت باب دارها.. التصقت بالبوابة بظهرها فاردة ذراعيها جاحظة بعينيهـا.. عربـات الجـيش.. مكبـرات الصوت..

- ابتعدى من هنا سنهدم البيت
- لا .. لا .. أرضى.. بيتى
- هيا ابتعدى

اقتربت الجرافة ورفعت الكف الحديدية الضاربة فى قلب السور فانهالت أحجاره.. وفتحت لهـا فتحـه تختـرق المكان.. الجنازير تصطك فى الأرض.. حبـات البنـدورة انفجر باطنها وسال لتشرب منه الأرض وتـروى تمزقـت عيدان الزهرات وتناثرت أكمامها، أوراق الميرامية بعثرت، حبات الباذنجان انتزعت من جذورها من أرضها.. أزاحـت أمى غطاء رأسها فافترش درجات البيت شـدت خصـلات شعرها تدخل وتخرج باكية والجرافات تزمجر على الأرض تمزق أوصالها وتقطعها.. ألقت بجسدها على درجات البيـت وانكفأت على وجهها تلثم كيانها المتهاوى ثم تستفيق تصرخ "بلا" وتلقى بجسدها فيرتطم بالبناء.. امتد ساعد أبى إليهـا.. شدها إليه تملصت من ساعديه صارخة..

- اتركنى لأموت هنا فوق بيتى..أموت على أنقاضه

واندفعت تقف أمام الجرافـة لتأخـذها مـع الهـدم والردم.. أسرع نحوها.. شدها إليه بقوة.. شدها بعنف رفـع ساعده وهوى بكف يده على خدها فكانت لطمة..

عاد أبى بأمى يلم دموعها.. يلم كيانهـا عـاد بهـا يحتضنها عبر ممرات الحديقة وهـى مستسـلمة لسـاعديه يضمها يحتويها.. وكلماته لنا..

قد يأتى يوم ويلقى بنا " بيجن " فى صحراء.. خلـف سياج.. على حدود الوطن.

العود الثالث والعشرون

كتب وأقلام (١)

مدرسة المأمونية للاجئات..

مدرسة الشهيد مصطفى حافظ..

مدرسة فلسطين..

مدرسة صلاح الدين..

خلت ساحات مدارسنا من طلابهـا.. ذرات رمـال الساحات كلها اشتاقت لأقدام الأبناء القادمين إليها فى أول يوم دراسى يئن تحت وطأة الاحتلال.. اشتاقت العصافير الساكنة فى أعشاشها لطلات عيون الأبناء.. حتى أرصفة شـوارعنا تشققت حوافها تهدمت أحجارها تستصرخ أبناءها ليشقوا قلب الصبح الذى يتندى على طرقاتنا بوقع أقدامهم.. كانت أمـى منهمكة فى تحضير أدواتنا وملابسـنا.. والحـديث دائـر لا يتوقف يوم اجتمع الرجال فى مجلسنا وعلا صوت عم سـعد بنبرة غاضبة فتحنا لها أجفاننا على آخرها..

- اسمع يا أبا ماجد " سعد العمايرة " لا يرسل بناته يتعلمن فى زمن الاحتلال..

تدافعنا جميعنا وراء شباك درانا فى عيون متحفـزة لأحداث لم تكن فى البال يوماً.. همست لأختى..

- هذا معناه أن ماجدة لن يسـمح لهـا أبوهـا بالذهاب معنا غداً..

فردت موشوشة

- وأيضاً مريم..

عاد أبى يلم أطراف الحديث

- يا أبو عزام كيف لنا نقعد أبناءنا عن تحصيل العلوم.. المدارس على أرضنا ونحن لا زلنا عليها والمعلمين هم أبناء هذا البلد فلم الخوف.. أنا سأرسل بناتى ولن أضـيع عليهم يوما فى تحصيل دروس يتزودن بها، امتناعنا هذا هو ما تبغيه سياسة المحتل خلق جيل من المغيبين الغافلين عـن الحقائق وما يدور..

انتفض عم سعد.. وأشار لزوجته أن تتبعه مردداً

- هذا قرارى ولن أتحول عنه..

دفاترنا.. أقلامنا.. وأغلفة الدفاتر متكومة على النضد الكبير.. وحقائب مدرستنا رصتها أمى خلف الباب لنحملهـا معنا فى صباح يتندى لخطواتنا.. فى دارنا القابعة فوق التلال الرملية تلفها مدراسنا.. الشهيد مصطفى حـافظ.. مدرسـة فلسطين.. صلاح الدين.. انطلقنا مع إطلالة صبحنا مع كتب

وأقلام إلى الأبواب الحديدية المشـرعة لـدخولنا.. امـتلأت ساحاتنا بالطلاب والطالبات والجميع يهمس ويسأل كل عـن رفيقه.. غابت عن صحبتى ماجدة.. وأختى غابت عنها مريم وأخذت كلمات العم سعد تطن فى أذنى لـن ولـن.. وكلمـا أقترب وقت الدخول إلى الفصول يبتعد الأمل فى عودة ماجدة ومريم إلى صحبتنا.. اجتمعنا فى طابور الصـباح ووزعنـا على الفصول فى مقاعد شغلناها ومقاعد نظرناهـا خاويـة.. دخلت المعلمة علينا فنهضنا لها محبين وقفت فـى صـمت تطالع وجوهنا.. وتنظر إلى مقاعد خلـت مـن أصـحابها.. تنهدت.. زفرت وتناولت قطعة الطباشير وتمتمـت حكمـة اليوم.. فكتبت على زاوية السبورة..

يا فلسطين لا تُراعى ففينا
همة تصفع الزمان القاهر

شعر/ كمال ناصر

والتفتت إلينا مشيرة إلى زميلتنا إباء

- اقرئى حكمة اليوم

استقامت إباء وضمت ساعديها على جنبيها ورفعـت هامتها عالياً وقرأت..

ردت المعلمة:

- رددن وراءها..

علت الحناجر تعيد بيت القصيدة ثلاث مرات وقفـت تنظرنا بدموع تساقطت بحنو على خديها فتوهجت لنا تفـتح طريق أمل فى غد مع كتب وأقلام..

فى ساحة مدرستنا تتخطى أقدامنا تـلال نفـرد عليهـا قاماتنا.. أشجار الكينا الملتفه على سور مدرستنا.. اكتملت دائرتنا الطفولية همست لى باسمه..

- أنا أحب عبد الحليم.." لست وحدك حبيبها ".

ثم فتحت قرطاس من الورق ضم حفنـة الزعتـر.. ونعمة فردت الجريدة وأرغفة الخبز المقطعة وإلهـام لمـت الزيتون بكيس بلاستيكى.. نسمات هـواء تطيـر خصـلات شعرنا فتتعانق بعضها ببعض وتغـزل الأحـلام الصـغيرة بمغزل الحكايات المتناثرة على ورق الجريدة.. خاطبت بهيه باسمة الجالسة بجوارى..

- ألا زلت تحبين عبد الحليم؟

- نعم

- أنا أعرف أنتم أهل يافـا تحبـون الطـرب وساعات المرح.. لا أعرف أحداً مـنهم وإلا كـان عـازف لعود.. أو صاحب صوت يشدو به فى ربابه..

فردت إلهام:

- أما نحن أهل المجدل..

ولم تكد تكمل حديثها حتى قاطعتها نعمة

- نعم أهل المجدل سموا بهـذا الاسـم لأنهـم جادلوا الرسول صلى ا عليه وسلم..

قاطعتها إلهام محتده:

- نحن اشتهرنا بالذكاء والحنكة وتسير أمـور التجارة.. نحن المجادلة عقول ومفكرين.. ثم هزت برأسـها محملقة بعينيها العسليتين وغمست يدها فى ورقـة ضـمت الزعتر تلتقمه مع حبات الزيتون.. وأقراص فلافـل سـاخنة تجاورها حبات الفلفل الأحمر المطحون المضـمخة بزيـت الزيتون.

نظرت إلى بهية:

- وأنت يا بهية من " يبنه " خبرينا عن أهلك

ينخفض صوت بهية وتسرح ببصرها بعيداً..

- "يبنه" هى بلدتى التى لم ترها عينى.. " يبنه " تسكن فى عين أمى.. وأبى من " اللد " دوماً يتحاكون عـن أرضنا.. كان لنا دار وحديقة وأرض زرعها أبـى.. ولكـن عينى هذه لم تر غير بيتنا فى المخيم..

داهمنا الوقت..

لمت بهية ورقة الجريدة التى نفردها هنـاك تحـت ظلال أشجار الكينا نرسم مدننا.. وطريق العودة إليها.. مـن غزه.. سدود.. العفوله.. يافا.. اللد..النعانى.. الرمله..

نجوب المدن ونصعد الجبال وننزل السهول بعيوننـا الشاخصة على ورق الجريدة.. على زعتر وزيت وزيتـون وباسمة لا زالت تسمع عبد الحليم لست وحدك حبيبها هنـاك تطير الأغنية من نوافذ المخـيم إلـى الأزقـة والشـوارع الضيقة.. حيث تأتى هى مع نسمات الصباح إلـى مدرسـة المأمونية لاجئات.. من قلب مخيم الشاطئ.. لهاجديلة ترفعها من أعلى رأسها.. تتـدلى إلـى خاصـرتها تتـأرجح مـع خطواتها.. ببسمة باسمة التى كانت تشرق صباحاتنا.. واليوم كانت تجلس وحيدة على المقاعد الخشبية لم تخرج معنا إلـى

الساحة كما اعتدنا.. تركت الصحاب ودخلت إليها تحتضـن المقعد الخشبى غارسة وجهها فيه تلمه بساعديها همست لها:

- ما الذى ألم بك هذا الصباح؟!

لم ترد

مازحتها

- أكيد ضرب مبرح من خالتى أم أحمد..

فما كـدت انتهـى مـن جملتـى حتـى أجهشـت بالبكاء..اقتربت منها رفعت وجهها لتنظرنى

- ما الخبر حدثينى؟

ارتعشت شفتاها وتمتمت

- أمى.. رحلت

شخصت إليها شـددتها نحـوى ضـممتها وبكينـا معاً..تحشرجت أنفاسها.. تعثرت كلماتها..

- كانت تحلم بالعودة ولكنها قضت فى بيت من تنك.

هدأت قليلاً أخذتها من يدها إلى الساحة الممتدة أمامنا نغرس أقدامنا فى التلال الرملية همست لها مداعبة

- وعبد الحليم.. لست وحدك حبيبها..

من حرف الضاد انبثقنا نلم خيـوط الشـمس نبنـى بيوتاً.. لقحطان.. عـدنان.. فـى بلادنـا حطـت قبيلتـى وعشيرتى.. كنعان. من العرب البائدة.. العمالقة..

من حرف الضاد نطقت بها معلمتى فاطمة الغلاينـى نطقنا حروفها معاً.. تقرأ الكلمات.. تقرأ الحكايات من قلـب التاريخ.. عربى أنا عربى..

وظلت النافذة الحديدية لفصلنا مشرعة النوافذ تتسلق على حوافها زهور الياسمين.. كثيراً ما تطلع نافذتنا المشرعة تنادينا أوراق الياسمين المتعربشة تأخذ عيوننا من خلفها بعيداً بعيداً..

فى لحظات وداع نزفت فيها الأفئدة لمقاتلين رحلـوا بنظرات وداع وشارات أكف ولم نعد نراهم ولم تعد عرباتهم تمضى من أمامنا ولكن اليوم سمعنا هدير وصوت محركات وعربات عسكرية.. نظرنا فـى الأفـق البعيـد.. عربـات الجيش.. وكلمات فى أجهزة اللاسلكى لا تفك لها رموز ساد صمت وتحسست مسامعنا كلمات مشوشة تحوم بيننا. ثم مـا لبث أن فتح باب فصلنا.. إنها الناظرة سعاد..

وقفنا على الفور.. أشارت لنا بالجلوس وقفت تقابـل معلمتنا بنظرات لم تفهمها اقتربت منها تنقل لها كلماتها دون أن نسمعها.. وانصرفت مهمومة بهم يحوطـه الارتبـاك.. واقتربت معلمتنا من النافذة المشرعة تنهـدت وزفـرت ثـم استدارت نحونا..

- بعد خمس دقائق سيأتيكم زائر..

- من يكون؟

بصوت واحد رددنا..

وقبل أن تلقى لنا بالإجابة فتح الباب ثانية.. ودخـل رجل بزى الجيش.. لم نتحرك من مقاعـدنا وتبعـه اثنـان يحملان علب كرتونية وبحركات سريعة تخرج أيديهم أكياس من الملبس يضع أمام كل واحدة منا كـيس ويكمـل لبـاقى المقاعد.. وقف ينظرهم ليتابع سير العملية.. ولم تمتد أيـدينا لتناول أكياس الملبس الملون.. تدارك الموقف ووقف يهيـئ حديثاً يلقيه إلينا..

- أعرفكم بنفسى أنا أبرهام.. أجيد العربية فأنا من مواليد العراق من بغداد من حى الأعظمية.. وأنا سأعمل كل جهد لأوفر لكم الأجواء الدراسية لكى تتقدموا وتتفوقوا

كانت نظراتنا تنفلت منه بين الحين والآخر نحو النافذة المشرعة.. وخيالات رجالنا الذين مضوا فى يوم الرحيل إلى سيناء.. ومناديل لوحنا لهم بها.. وكانت هى نفس المناديل المطرزة التى لمت دموعنا على الرجال.. همم وسواعد.. وفداء.. وما تلبث نظراتنا أن ترتد إليه يقف ينطق بعربيتنا بكنعان التى هى لنا ونحن لها.. مضى ومضينا إلى دورنا.. تاركين وراءنا أكياس الملبس على مقاعدنا.. فلا زالت المرارة تعشش فى حلوقنا.. فبات لها مذاقاً نستمد منه حياة..

مع كل يوم عودة من المدرسة كنت أتقابل مع ماجدة التى كانت كفاها متشبثتان بحديد النافذة فى موعد انصرافنا كانت تقف تنظرنا.. تنظر الأفواج الهادرة من الطلاب والطالبات ونظرة تتكسر بين القواطع الحديدية فما أن أقترب منها حتى تترك النافذة تلف تدور لتفتح لى البوابة الحديدية فأطالعها على الكتب والدفاتر نقرأ معاً نتصافح فى كتب التاريخ.. وخطوط الجغرافيا.. شارات خضراء سهول.. جبال.. صحارى.. أنهار.. تقفل دفتى الكتاب وتزفر متنهدة..

- أتعرفين يا رفيقتى كل ليلة أسهر مع القمـر أراقب النجوم.. والشهب المتساقطة تتـوهج وتـذوب فـى ظلامنا.. أسمع أحياناً وقع أقدام.. دوى رصاص.. طلقـات مدفعية ثقيلة تبدأ وتنتهى مع الصدى خفيفة أظنهم سيرجعون إلينا..

- من هم..؟

- ضباط الجيش المصرى وجنودهم..انسيتى يا رفيقتى بعودتهم سأعود إلى مدرستى.. لقد مللت الانتظـار.. وأحلام تقرب منى يوم الفرح يوم عودتهم.. وأصحو لأجـد عربات الجيش تحوم حول مدرستنا.. فألوذ فى خـوفى فـى صمتى خلف القواطع الحديدية..

قاطعتها قائلة:

- غداً اتفق الجميع على الخـروج بمظـاهرة نهتف فيها ضد الاحتلال..الطلاب من مدرسة صلاح الـدين سيأتون إلينا ليخرجوا لنا من الفصول ونندفع إلـى شـارع الوحدة ثم عمر المختار إلى سراية الجـيش فـى المجلـس التشريعى..

ردت بصوت ضعيف:

- كم أود أن أشارك معكم؟؟

وبحماس شديد قلت لها:

- فى يوم قريب ستجدين لك دوراً معنا..

نهضت أصافحها وأعود لبيتى ليوم غـد لا أعـرف كيف ستمر بنا أحداثه..

مع شعاع الشمس تحملنا خيوطها الذهبية إلى طرقات بللها ندانا.. فتملأ الأنفاس زهواً وفخاراً بأن نسماتنا تهب من أرضنا.. من وطننا الذى تتدثر بأطيافه ونسائمه..

مدارس مدارس تلتف من حول دارنا من المأمونيـة لاجئات إلى الشهيد مصطفى حافظ بنات والبوابات لازالـت مشرعة.. لدخولنا.. تقف الشمس تحرسنا تضـئ لنـا كـل الزوايا المظلمة.. وعلى آخر ممراتنا كانت معلمتنا تجلـس.. وحولها فى جناح التدبير المنزلى يلتف حولها الفتيات يمسكن بلفائف الخيوط حمراء.. خضراء.. وأقمشة الحبـر سـوداء لامعة يطرزن عليها.. يمررن الأبر الممسكة بخيوطها لتنقش على خطوط رسمتها معلمتنا.. وتتسابق الفتيات للوصول إلى المعلمة لترى كيف اتقن ورقات الشجر الأخضر.. وحبـات الكرز الحمراء.. وابتسامات الصبايا وسماحة القلوب..تفيض

من سماهم.. ولكنا المدرسة اليوم تضج فى حركات غير عادية.. هتافات تملأ شوارع غزه تقترب منا والقلق بدأ يسيطر على الفصول معلمين ومعلمات.. وعربات الجيش تغدو جيئة وذهابا انتظاراً للحظة الانفجار.. غرفة المعلمين أفرغت هذا اليوم.. الجميع ينتشرون فى الردهات وعلى المداخل والفصول..

ونحن لملمنا كتبنا وأقلامنا داخل حقائبنا لنستعد للانطلاق لحظة دخول الشباب من البوابات الأصوات تقترب.. مكبرات الصوت وإشارات اللاسلكية.. ولكن الهدير يقترب منا.. ودقات قلوبنا تردد ملء الصدور.. بالدم بالروح نفديك يا فلسطين.. وما بين الهدير الزاحف إلينا ظهر لنا إبراهام بين الفصول يخاطبنا..

- إلتزموا الهدوء لا فائدة من كل هذا.. ستتعرضون للسجن.. وأهلكم سيتعذبون من جراء أفعالكم..

وقفت بهية ممسكة بحقيبتها..

- اخرجوا من بلادنا.. وعد إلى العراق إلى الأعظمية واترك لنا فلسطيننا..

في لحظة اختفى إبراهام عن عيوننا ونحن بدأنا فـي لحظة التحضير للانطلاق في شوارع وميادين غزه.. هتافات تطوف بشوارعنا "أعلناها على المكشوف يهودي مـا بـدنا نشوف".

العود الرابع والعشرون

كتب وأقلام (٢)

كانت غيوم الصمت تحوط مدارسنا.. ولكن لم تنـثن لنا عزيمة فى التواجد كل يوم فى ساحاتها.. نستعد كل يـوم للانطلاق إليها نحمل كتبنا.. أقلامنا.. ولكن.. يدفعنا ما كـان أقوى منا كان أقوى منا وما يزلزل كياننـا فـى الـرفض.. الرفض بكل ما نقدر عليه وكل ما هو متاح.. مرات نخـرج بعد الحصتين الأولى والثانية.. وأحياناً مـع بدايـة طـابور الصباح.. حتى الأستاذ حكمت لا أنسى يـوم حضـر إلـى مدرستنا مصطفى حافظ الثانوية.. ببدلة عرسه فى يوم زفافه كان بوجهه الناصع البياض ورموش عينيه بيضاء مع شـعر رأسه.. ونظارة سوداء تأخذ مكانها على أرنبة أنفه مسـتقرة ساكنة.. وهو المتحرك بين صفوفنا.. يعلمنا اللغة الإنجليزية ويمسك الكتاب يقربه إلى وجهه حتى يكاد يلتصق به يتبـين حروف الكلمات فيقرأها.. لا يسعفه بصره يطلب من إحـدانا أن تكمل لنا ما توقف عنده.. ولكننا فى هذا اليـوم عاجلنـاه بالسؤال

- اليوم هو يوم العرس لم أتيت إلينا؟!!

يرتبك فى حمرة تطفح على وجهه ويهز برأسه دون اتجاه..

- أنا حريص على عدم ضياع الحصة منكم أتيت إليكم يوم عرسى فياليتكم تقدرون ثمن الوقت الذى أخاف ان يفوتكم..

كنا نتفكه على مواقفه معنا وكيف كان يملينا أسئلة الامتحان ويخرج من فصلنا يقف بالباب وما أن يدخل إلينا حتى نعاجله بالأسئلة

- تركنا نؤدى الامتحان ولا تراقبنا يا أستاذ حكمت؟

- تعلموا كيف تراقبوا أنفسكم.. فأنا لست برقيب عليكم..

أنا معلمكم .. هاتوا أوراق الإجابة

نندفع نحوه نتسابق لكى يلم أوراقنا وعيوننا على الشبابيك لحظة الانطلاق.

كانت " انتصار" شديدة الاندفاع وسريعة الحركة بمجرد أن تسمع الهتافات الهادرة تقترب من شارع مدرستنا.. تقفز من مقعدها تحتضن حقيبتنا بيد وبيد أخرى تشير إلينا بأن نتبعها فتقوم الجموع وراءها.. تدق على أبواب الفصول يخرج الجميع فى جسد واحد يندفع نحو الرفض والمقاومة.. ولكن الجيش اليوم اقتحم ساحاتنا وقفز

الجنود حاملين الهراوات عاجلونا داخل الفصول وأوصـدوا الأبواب علينا وتناوبوا الضرب وتكسير العظـام.. نـزف.. وصراخ.. تفتيت سواعد..

اندفعت المعلمات نحو الفصل الموصد على الطالبـات اندفع الرجال إليهم.. حتى أستاذنا محمد عدوان وقف بمقعـده المتحرك على الردهة الطويلة وانشغال الجموع الهائجـة فـى صرخات التحدى عنه.. عدوت نحوه نظرنى نظـرات عجـز فتفتت قلبى النابض بالثورة.. اقتربت منه.. أمسـكت المقعـد تشبثت به ولففت راحة كفى.. طوقت ذراعيه وانـدفعت بقـوة أعدو بمقعده نحو زميلاتنا.. كنت أنا وهو كيان واحـد يشـق الضباب والدخان والهراوات إلى أن اعترضنا أبراهام المترجل من العربة العسكرية وأنا وقفت فى كيان أستاذى ومعلمى محمد عدوان.. انغرست نظراتنا إليه كنصل سكين فى صدره وقـف قبالتنا.. وأنا تقدمت من خلف أستاذى أقف بجـواره ممسـكة بذراع مقعده..

- محمد عدوان أنت هنا إذن
- نعم أنا هنا مع من تبقى لنا..

- أراك عاجز فى مقعدك يشل حركتك بعدما لم القبر هناك أخاك.. كمال عدوان فى بيروت.. ارجـع إلـى غرفة المعلمين واحتمى بها من رصاصنا.. ودخان قد يعمى عينيك وهراوات قد تكسر ما تبقى منك..

ولم تمض ثانية حتى علا الهتـاف مـن الحنـاجر المحمومة

- يا كمال يا عدوان علمتنا حب الأوطـان .. عدوان.. يا كمال.. عدوان يا كمال..

اندفعت الجموع تكسر واختلط الـدخان بالـدموع.. وسالت دماء.. كتبنا.. أقلامنا.. فى خضم هذا اليوم.. طالعنى وجه ماجده تمسك بيد مـريم.. وحقيبـة مدرسـة تنـاثرت محتوياتها.. وملامح وجوههم غابت فى زخـات دم انهمـر علينا كالمطر.. وغاب أبراهام هو ورجاله.. وبقينا نحن نلـم ما تبقى لغد آت إلينا..

العود الخامس والعشرون

الصبار وشقائق النعمان

ظل الهاتف على نضد بهونا الكبير.. يحمل الـرنين إلينا كثيراً.. يحمل الأنين..

- معذرة يا سيدتى.. أستاذنا وقع فى المحكمـة مغشياً عليه أفاق بعدها ويرفض الذهاب إلى المستشفى..

أسرعت أمى إلى طريق المحكمـة تشـق الطريـق بأنفاسها المحمومة..

" أبو ماجد لم هذا العذاب.. أنك تصـر أن تمـوت واقفاً.. "

أفاقت على صوت فرامل سيارتها أمام باب المحكمة اندفع جمع من الأساتذة إليها يطمئنونها.. ظهر لها من بعد.. استعادت ثباتها من لحظة تخشاها.. همت إليه بقلق يعتمل فى نفسها ولكنه كشف عن ابتسامته الودودة وشـمر عـن كـم قميصه ينظر لساعة يده:

- جئت مبكراً هذه المرة

وخطى بخطوات سريعة وكأن خيوطاً تسرع نحـوه لتلتف حوله تعانقه.. خيوط نسـجها فـى أروقـة المحكمـة والقاعات الصغيرة والكبيرة التى رددت صـدى لكلماتـه.. يندفع بقوة نحو سيارتها فهوت الخيوط على مـداخل ألفهـا

وألفته.. أحبها وأحبته.. فى ضـمير العدالـة فـى سـاحات الواجب الذى عاش فى دهاليزها المنيرة.. جلـس بجوارهـا وهى وراء المقود تكتم لهاثها لئلا تنقل هواجسها إليه.. وهو لم يكف ينظر إلى ساعة يده..

- وصلنا الحمد

ترجل من السيارة واندفع مسرعاً عبر ممر الحديقة.. وتبعته أمى.. كان واقفاً بباب البهو الكبير لم ينتبه لوجودها.. حامت نظراته سابحة فى أركان البيت وزواياه، تعتلى السقف وتشخص فى بندول الساعة الذى جـرح الصـمت بدقاتـه المنتظمة ليذهب بعيداً بعيداً يأخذه نـور المصـباح فيـزوغ ببصره إليه ومنه إلى الأرض لينفذ عبر فتحات الشبابيك إلى ظلال أوراق العنب المتعربشة من كل ناحيـة إلـى مكتبـه وأوراق كتبها واسم دائمـاً يوقـع ويـذيل بـه.. عـرائض تظلمات.. أحكام نزاع على حيازة أرض لا زالـت تـرزخ تحت الاحتلال.. لوحات زيتية رسمها قـابعو المعـتقلات.. مصحف صدفى تستنيم على ضفافه قبة الأقصى.. تنبه لدفء أنفاسها التفت إليها مد لها يده مصافحاً بحركة لا شعورية..

- أراك على خير

تسمرت فى مكانها.. ارتدت بخطوة إلى الوراء غرست نظراتها فى كف يده العريضة التى لمت أطراف سنين العمر ونقش عليها تاريخ لسنوات يبنى يعمر يعدو دون توقف.. ولكن إلى أين..؟

توقف قلب أبى.. ورحل يوم رحيل يحيى عياش فوسعتهم مقبرة واحدة على أطراف غزة..

وندخل البرية يعتلى بوابتها قوس النصر والقبور من اليمين صفوف والشمال صفوف شهداء.. أبرار.

" ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل ا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ".. أعلام لشارات النصر أشجار الزيتون صبار من صبرنا.. تمر أختى " كريمة " بأبى زائرة تحكى وتزفر فى وجيعة، كلما ذهبت إلى زيارة أبى أسير أفتش ما بين مئات القبور عن قبره.. ألواح رخامية مائلة.. أسماء.. أسماء كلهم من الشهداء.. أظل أبحث تتعثر قدماى بنباتات الصبار وشقائق النعمان التى انبجست منها زهرات حمراء من دم شهدائنا.. فأجدنى أقف دون أن أدرى أتلفت حولى.. فأجد قبر أبى هو الذى يدلنى فى كل مرة.. يدلنى الطريق إلى زيتونة مزروعة فى أرض دفن فيها حيث البرية..

العود السادس والعشرون

بلاد العجائب

رنين.. رنين ويمتد الرنين ليعلن عن قدومه من بلاد العجائب أمريكا..

- أخى

- أختى مرحباً بك

حط الصمت على لهاث الأنفـاس عبـر سـماعات الأثير..

- أنا أتحدث من المستشفى واليـوم ظهـرت نتيجة الفحوصات التى أجريت على.. السرطان يفتك بجسدى وأنا وصلت إلى المرحلة المتأخرة..

قفل الخط.. وفتحت كل الخطوط بعد هـذا الحـديث بطاب الأطباء.. المجربين.. المتألمين.. أقربـاء.. غربـاء.. أختى تموت فى بلاد العجائب.. فتح الخط.. صـوته رنـين يتحشرج.. أسماء تحتضر فى سـرير انفـرادى.. حـدثتها وحدثتنى.. تريد أن تسمع أصوات من تحـبهم ويحبونهـا.. كلماته تطن فى أذنى.. تئن فى صدرى.. أمست أسماء تطوق لتعرف أحباباً لها يعرفونها وقد لا تعرفهم..

من سنوات العمر العابرة بنا أتيت من قلب الوجع من أرض لفها الحصار.. من قصص البطولات.. من شـوارع

معتمة ونوافذ موصدة على حكايات وطن.. علـى زغاريـد شهيد.. أتلمس سياجاً يلفنى يحوطنى من على أطراف وطن.. حوطنى سياجه وكان شائكاً غور فى جسدى وادماه.. وكنت أنت فى البلاد البعيدة.. حلمت بك قبل أن ألقاك طوق أمـان يشدنى يجذبنى إلى عوالم الأسرار الجميلة.. والتقينا.. ألتقيت بقسمات وجهك الحادة ونبرات صوتك المحتده.. من البدايات البعيدة كنت أنت زهرتنا وحبيبتنا.. كم أحبـك أبـوك وكـم تحدث عنك أخواتك.. يحكون فيك كل قصائد الشعر.. يتغنون بأسماء الأبنة.. والأخت.. والأم.. كنت حلماً لى.. وعتبة دار جميلة قد ألقى عليها أحمالى وهمومى.. كانت صورك تزين حوائط دارنا.. ويشير أخوك بإصبعه للزائرين إلينا..

هذه أختى أنا.. أسماء.. هذه صـورتها فـى سـنة تخرجها من كلية النصر للبنات وهذه شهادة تشيد بحصـولها على درجة الفتاة المثالية.. صورة وأنـت ترقصـين علـى صفحات المياه رقص إيقاعى بجسد الفراشة الذى تملكينـه.. كنت حلماً جميلاً لرحلة مـن رحـلات الخيـال الممـزوج بالواقع.. وكان لى لقاء معك فتحت ذراعيك مرحبة بخطوات متهادية كمن تنثر ورود الحب فيها.. ولحظة تتمايلين تنضج

أنوثتك المتوارية.. مددت إلى بكف يدك الطرية تصافحينى.. وشعرك غجرى ثائر يلف كتفيك وحواف ملابسك الأنيقـة.. وظلت صورتك محفورة فى إطار جميـل يتحـرك أمـامى وتزداد ألوانه ابتهاجاً.. لحظات انفعالك اندهاشك وسـعادتك المتوهجة فى نور عينيك كنت أحبها وكم كنت أسـعد بـك وأنت متكومة على أريكتك المفضلة ممسكة بكوبك المفضـل بلحظة تلملمين ساقيك وتشدين قميص نومك لتغطى ما ظهر منها.. كنت دفئاً فياضا فى نسائمك الجميلة.. كم كنت قريبـة منك ولكن أسماء دوماً بعيدة فى عالمها الجميل داخل إطـار صورة أخاف أن أمد يدى إليها فتختلط ألوانها فى يدى..

وكم من الأوقات أمضيتها فى غرفة نومهـا سـاعة ذهابها إلى عملها.. أتأمل سريرها.. أدراج تسريحتها أدوات زينتها.. عطورها.. سلاسلها الذهبية المدلاة علـى الحـائط لامعة متوهجة تستنيم على الجدار تنتظرها لتمد يدها تتناول إحداها.. تعلقها على صدرها.. تقول هذه هدية أمـى لـى.. وتبتسم.. فتكون هى دوماً الرقيقة.. الحادة.. الوديعة..

مع دخان عود ثقاب مشتعل.. أذكـر يـوم حملتهـا الطائرة وأقلها قطار الإسكندرية فى أول رحلة وصول بعـد

غياب سنوات عمر طويلة كانت هى الفرحة فى لحظة تصل إلينا.. جاءتنا بجروح غائرة وعيون دامعة.. فالتفت الأيـدى تحوطها فقد ينام الجرح ويجف الدمع.. وكان لى يوماً معها.. أسندتها على ذراعى لتغتسل.. لم تقو على الوقوف أجلسـتها على مقعد خشبى وبيدى ليفه وصابون أمررها على جسـدها أهدهدها كطفل تاه عن حضن أمه اسكب المياه فتسـيل مـن على كتفيها آخذة رغاوى الصابون حيـث أرض الحمـام.. اغسل همومها.. أزيحها. أصرفها.. فتولد من جديد.. تولـد مع إشراقة شمس تزيح عتمة الليل ولكنهـا لـم ترنـى لـم تستشعر وجوداً لى أو تحفل بلقاء معى..

لملمت جراحها.. ورحلت.. مضـت حيـث الـبلاد البعيدة.. وظلت الصورة الجميلة للوحة الفريدة وبقايا ذكريات مبعثرة فى السنين التى تمضى بنا.. أوعز له أن اليوم عيـد ميلاد أختك أسماء.. لا تنسى الاتصال بها اليوم.. أول أيـام السنة الجديدة لا تنسى الاتصال.. هل هى سحابة من سحابات صيف أم سحابة حزن جثمت على صدورنا.. فـى السـرير الانفرادى هناك اك أن تنهضى ويحملك قلبى إلى هنا.. مـن محطة سيدى جابر التى أتيت إليها ورحلت منهـا مودعـة..

اشحذى عزيمتك واعطنى قلبك الذى كان دوماً بعيداً لتـرى عالماً لم ينساك طوال غربة السنين..

- كلماتك تسبح فى كيانى يوم ركبت السـيارة تجوبين شارع البحر وتفتحين النافذة فيطير هـواؤه شـعرك الغجرى.. كم هى رائعة رائحة البحر إنه اليود وكنت تأخذين نفساً عميقاً وتزفرين.. تزفرين بلاد العجائـب.. وتتنفسـين هواء هو سر حياتنا هنا..

من محطة سيدى جابر إلى سـيده حملتـك بيـديها ووسعك قلبها " أم لطفى" لم تنساك.. ونظراتها حائمة دومـا عليك تفتش عنك.. تقتفى أخبارك التى باتت بعيدة فى بـلاد العجائب.. أدواتك المدرسية.. الجامعيـة.. تسـكن العلـب الكرتونية كتاباتك وخطوط رسمتيها تقول أنك هنا.. لا زلت فى أرض الوادى الذى بكاك من يوم رحلت مع الراحلين..

تعود تلفنى كلماته وهو يردد أسماء أختـى تمـوت فأزفر بأنفاسى.. أسماء.. قد تكون المسـافات ضـاقت بـى وبك.. ضاقت بى من وطن يئن بأوجاعه وحسـبتك ملجـأ.. وضاقت بك فى حدود جسد يحده زمانك ومكانـك هنـاك..

ولكن هل لو انطلقتى فى رحلتك الأبدية هل ترينني.. هل تعرفينني بعدد سنوات العمر التى رحلنا معها وبها..

فمن عوالم الغيب الجميل قد ترين قلباً أحبك هو قلبى أنا.. وعيناً يرقد فيها إطار لصورة جميلة بألوان زيتية لها بريق لا يخبو أبداً.. هى صورتك أنت..

العود السابع والعشرون

جسدى هناك فمن يحمله

جسدى هناك فمن يحمله

نامت العيون فى محياها.. لفتها رمـوش حوطتهـا بعدما كانت تسافر ببريقها سحراً يلف الوجود.. نامت عيونها على الأمنيات الجميلة والوعود الدافئة..

- أنا قادم إليك حبيتى.. مع أول خيوط شـمس لنهار غارب..

كان الأثير يسافر إليها ويأتى بها صوتاً مخملياً يحمل قوة تنزف ضعفاً ولا زال صوتك مسافراً يلملم خيوط الشمس الذهبية إلى مرقدها هناك فى بلاد العجائب..

جسدى هناك فمن يحمله

جسدى هناك ينام فى حضن الثلج الذى ما كف يسقط على قلوب هنا.. وقلوب هناك ليطفئ جمرات قلوبنا فيجعلها دخاناً يعمى العيون.. تسيل دموعنا فتتساقط منهـا حكايتـك وكل الحكايات.. حكاية صوتك المخملى المـبطن بعـذابات السنين..

- هيا لم يتبق وقت..

ترتعد الخطوط تتوهج فى نار قلوبنا الملتاعة تخـرج حقائبنا من مطارحها تلفها أكياس بلاستيكية تنظرها لننزعها تنزع الحكايات لتظل الحقيقة عارية..

جسدى هناك فمن يحمله

خرجت جوازات السفر وفتحت صفحاتها جـوازات خلت من تأشيرة دخول تحملنـى إلـى مطـارات زجاجيـة متكسرة باتت صرح السفارات تصرخ تنادى هلموا إليها فلا وقت نضيعه ويهرع الأخ إلى هناك يقف يأخـذ دوره فـى طابور المسافرين.. اقتربت اللحظة ليقـف خلـف القـاطع الزجاجى.. ضد الصرخات.. ضد الطلقات ضد الانفجار أمام حليق الذقن أزرق العينين.. أمام كلمات وملأ فراغـات.. كلمات بعيدة بعيدة عنا.. وراحة يده تقـبض علـى الخـتم والنظرة يغرسها فى ملامح شرقية..عربية تكسرت أهـدابها لتلم دموع تخبئها لتروى بها أرضاً هناك لا زالـت بعيـدة.. بعيدة فى بلاد العجائب..

تحركت شفتاه المرتعشتان..

- أختى تموت فى بلادكم.. أعطنى موافقـة لا وقت لدى لأضيعه..

تفحصه بنظرة الغضب لزفرة مارد خرج من أتـون النار..

- أنت كثير الكلام!!

ودوى فى أذنيه صوت ارتطام.. ارتطم الختم بقـوة على كلمات ليست منا..

- مرفوض

ونادى رجال الأمن ليلقوا به خارجاً..

أطبقت طرقـات المدينـة علـى أنفاسـه ضـاقت واستحكمت وضاقت وسبحت كلماتها فى بحر دمٍ يجرى فـى كيانه..

جسدى هناك فمن يحمله

العود الثامن والعشرون

قد نموت بعيداً

اليوم أقف على باب المركز الرئيسى للبريد.. جبـل التجربة.. جبال مؤاب.. النويعمة.. طريق الآلام عيزريـة.. بيت حنينا.. باب السامرة بوابات القـدس.. زمـن صـلاح الدين.. طاردتنى عقارب ساعتى.. حملت أوراق دفستها فى مظروف كبير.. من مجلة الدوحة الشهيد ماجد أنشودة العزم على التحرير حكاية وقصة كتبها.. " الرحيل "

حدثت أختى عنها فقالت برجاء:

- هل لك أن ترسليها لى

اقترب من الشباك الزجاجى، صوت مـرتعش مـن المرأة الواقفة أمامى تنحنى ناحية القاطع الرخـامى وتسـتند بكف يدها عليه تخاطب الموظفة..

- أريد أن أبعث هذه الرسالة إلى فلسطين

يا إلهى.. فلسطين بفتح الفاء لا تقولها إلا فلسطينية.. استوقفتنى الكلمة نظراتها وهى ترفع الرسالة والسيدة الجالسة أمام الشباك لا تفهم ما تريـد.. مسـجل.. مسـتعجل بريـد ممتاز.. والسيدة تقف أمام الموظفة تلج فى كلماتها لا تعرف بم تجيبها.. أقف وراءها والمظروف بيدها مرة ترفعه لتريه

للموظفة ثم تهوى به على الرخام الفاصل بينهمـا.. كانـت قامتى تفوق قامتها أومأت لها برأسى:

- هل لك أن ترينى هذه الرسالة..

ناولتنى إياها بلهاث أنفاس متعبة.. نظرته ودققـت.. قلبته بين يدى تملكتنى دهشة وحيرة.. نظرتها.. بأهـداب.. وقوام أنهكه الوقوف..

- أجلسينى يا بنيتى فأنا تعبت مـن الطريـق والوقوف بين الجموع..

مددت لها ذراعى فاتأكت عليه لأجلسها على إحـدى المقاعد المصطفة..

- خالتى إلى أين تريدين إرسالها..

- إلى فلسطين

- ولكنى لا أجد هذه الكلمة، مكتـوب أمـامى أرقام متجاورة وكلمة إسرائيل كتبتيهـا تهـوى إلـى حافـة المظروف؟!

- يا بنيتى لو كتبت وادى الجوز.. العيزريه.. جبل المكبر.. جبل التجربة لن تصل رسالتى وهـذه أرقـام

تليفونات تدل على أسماء أحبائنا ومدن ستصل إلى يد أخـى أبى خالد

- ولكن يا خالتى بهذه الأرقام لن تصل رسالتك انتظرى دقيقة.

خرجت من المبنى وأتيت لها بمظروف جديد جلست بجوارى هادئة.. ساكنة..

- اعطينى مفكرتك التى تكتبين فيها العنـوان مـن صاحبه

- أخى أبو خالد

بدأت الكتابة.. فلسطين/ القـدس.. وادى الجـوز.. معصرة الزيتون.. بجوار مصنع الدخان.. يصل ليـد أبـى خالد..

- خالتى.. هل لك أن تطمئنى إلىّ فأنا امـرأة فلسطينية مثلك.. أين تسكنين

- بمفردى

- لك أولاد..

- تزوجت من رجل مصرى سبع سنوات رحل عنى ولم نرزق بالأولاد سنوات قضيناها معـاً مـرت بنـا لحظات جميلة لزمن جميل.

- لِمَ لم تتزوجى بعد وفاته

- أعيش على ذكرى زوجى أعيش غريبة هنا

- ألم تفكرى فى الرجوع إلى قدسنا

- ذهبت إلى هناك حيث سـفارتهم فـى أحـد شوارع القاهرة لآخذ تصـريح بالـدخول.. قـذفت المـرأة الإسرائيلية بالأوراق من فتحة أسفل القاطع الزجاجى..

- مرفوض دخولك هناك يا ست

سبحت كلماتى لها من الفتحة الملقى عليها أوراقى..

- أنا ولدت هناك فى بلدتى القدس فـى بيـت حنينا.. خلف أسوار القدس العتيقة..

- هيا افسحى مجالاً لغيرك

غرقت عيناها فى ماء رقراق كدته آت مـن ثلـوج أذابتها خيوط الشمس من فوق قمة جبل التجربة.. وتمر بباب الأسباط بباب الساهرة إلى العين الساهدة التى لم تنم.. رفعت

راحة يدى ألم كتفيها لتعانق آلامها ما يلم بى من سنوات بعد وفراق..

تمتمت فى صدرى

- لم تعد صحتى تقوى على السير ولا النهوض

وصوت أخى أبى خالد فى أذنى.. لا تجزعى سأرسـل لـك أوراقاً لمحاولة أخرى..

- ولكنى أخاف.. أخاف أن تنفلت منى خيـوط الزمان الواهية وأموت.. أموت بعيدة..

سلمتنى أوراقهـا أودعتهـا المظـروف.. لصـقت وأحكمت الغلق.. قمت من جوارها ناولته للسـيدة الجالسـة خلف القاطع الزجاجى.. ناولتنى طـابع البريـد.. لصـقت الطابع..

لرمسيس... أهرامات الجيزة

عدت أدراجى من علـى عتبـة البريـد.. نظـرت الفراغ.. طالعنى وهج الشمس.. كلماتها تطن فـى أذنـى.. أموت بعيدة.. زفرت بأنفاسى.. وقد أموت أنا أيضاً.. بعيدة..

الفهرست

جسدى هناك فمن يحمله

العود الثامن والعشرون

قد نموت بعيداً

الكاتبة فى سطور

- بشرى محمد أبو شرار
- من مواليد غزة- فلسطين
- ليسانس حقوق- جامعة الإسكندرية
- تقيم بالإسكندرية
- تأثرت بأخيها الأديب الشهيد ماجد أبو شرار

صدر لها:

١- أنين المأسورين	مجموعة قصصية ٢٠٠١
٢- القلادة	مجموعة قصصية ٢٠٠٢
٣- جبل النار	مجموعة قصصية ٢٠٠٣

(يسر الكاتبة تلقى آراء القراء فـى الروايـة علـى العنوان التالى:

جمهورية مصـر العربيـة- الإسـكندرية- بريـد السراى- ص.ب: ٣٥٢ الرمز البريدى: ٢١٤١١)

البريد الإلكترونى للكاتبة:

Boshra.shrar@hotmail.com

صدر من مطبوعات القصة:

بشرى أبو شرار	قصص	أنين المأسورين
الشربينى المهندس	رواية	الدخول إلى الكابوس
بشرى أبو شرار	قصص	القلادة
محمد عطية محمود	قصص	على حافة الحلم
آمال الشاذلى	قصص	ضجيج الصمت
منى سالم	قصص	بركان جبل الجليد
بشرى أبو شرار	قصص	جبل النار
محمد خيرى حلمى	رواية	عبد ا يقرأ طول الليل
فؤاد الحلو	قصص	إلا.. الليل
تهانى عمرو مرسى	قصص	أبجدية الدم